الحوزة العلمية

وسؤال التطور والتحرر

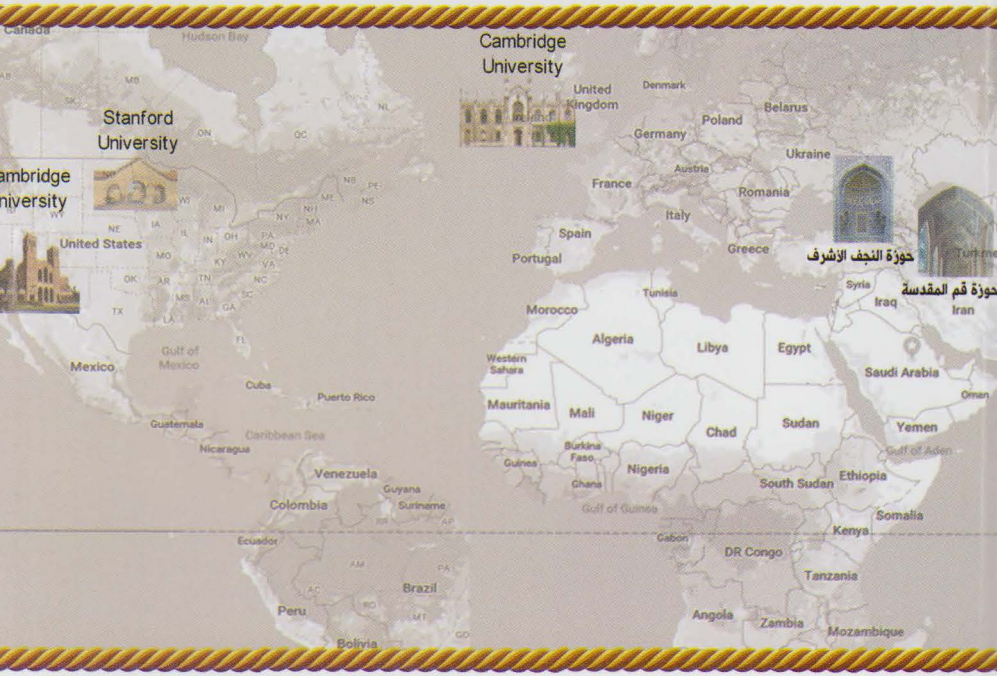

الشيخ عبد الجليل البن سعد

مكتبة
مؤمن قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

مؤسسة العروة الوثقى

الرويس – المعمورة، شارع خديجة همدر

هاتف: ٠٠٩٦١٣٦٠٦٨٢٩ سجل تجاري: ٤٩٣٨٤

الحوزة العلمية

وسؤال التطور والتحرر

عبد الجليل البن سعد

مؤسسة العروة الوثقى

الإهداء

شجرتي التي همست لي:

أحيني ثم املكني كما يُملَكُ الموات من الطبيعة..

شجرتي التي خبأت فوق أفنانها أجمل الطيور لتصدح وتغرد بترحيبي..

شجرتي التي تهتف بألوانها وتمدد أغصانها في عين غير الأعمى بالجمال وانبساط الفيء!!

شجرتي التي التبس أمري بأمرها فأظن أنها ظللتني وتظن أني ظللتها!!

رأيتك صامدة جلودة لثلاثة عقود وزادتْ شطرا..

سبحان من أودع الشجرة قوة المكافحة الذاتية لحفار ساقها!

تبا لعوادي الشجرة تتخلق تحتها ثم تنخر جنبها؟!!

باسمك اطبع كتابي هذا.

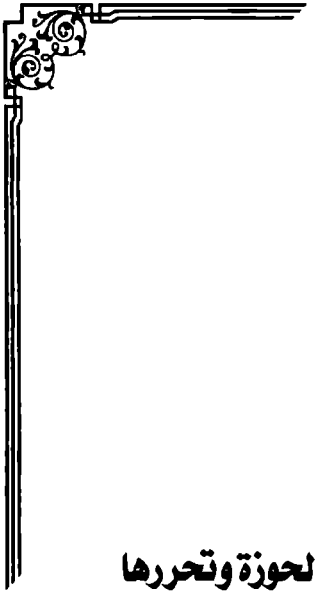

تطور كيان الحوزة وتحررها

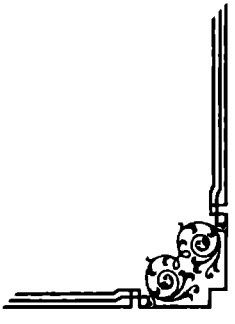

فاتحة الحوار

إن الحوزة العلمية الدينية تستهوي الكثير من النشء الإمامي المتدين ويرون أنها مركز للحفاظ على الهوية الدينية العامة، ومن بين العشرات من الشباب هناك من يطمح في استصدار هويته الدينية الخاصة منها على الخصوص وذلك بالانخراط في سلكها ولكن تراه يبقى مترددا في قراره هذا؛ إذ كلما قَلّب نظره فيها وراودته نفسه على الالتحاق بركبها عاد إليه النظر خاسرا لغموض مداخلها ومخرجاتها، وعدم المستقبل المحدد لخريجيها، وجزء كبير من هذه الهواجس هو وليد الطابع العام الذي يترجم الحوزة في أذهان الناس ترجمة خاطئة، فيجعلها ذات نظام عسكري لا يطاق في الانتماء، وتقييدات ضاغطة في الأخلاق، وتعقيدات تحول دون البلوغ والنضوج العلمي السريع.. مع اعترافنا بصدق بعض هذه المشاعر ـــ طبعا ـــ ناهيك عمن سار في أروقة الحوزة ودهاليزها بجذوة الحسد لأقرانه والنقمة على قلة حظه ممن لا يستطيع أن يقول أنا ساخط على الله بلسانه

ولكنه يعمل هدما وتخريبا.. غمطا وتمزيقا عندما ينكر بعض الحقائق مما يجب أن يبرز، ومهوّلا لبعض العورات والهنات مما لا يخلو منها مجتمع بشري!! وقاعدة أهل السماجة: أن ابن البيت مصدق فيما يشهد به على بيته، ولو كان فاجرا كذابا، وهنا يعقد التائه من المعممين حفلة لقائه بالتافه من المستعوَمِين؟!!

وليس بالضرورة أن تكون الحوزة مقصرة في هذه الظاهرة وتلك، أو ليس فيها رجال يحبون أن يتطوروا؟؟ إلا أن الحاضرة العلمية الدينية ربما أجبرت على اتجاه كما تجبر الرياح السفينة ــ وربما هنا للكثرة ــ نتيجة قسوة الواقع وحرمانها من أن تتمتع بكامل الصلاحيات، وحرمانها أيضا من أهدافها التي لم تدرك منها إلا الترر اليسير لأسباب منها ذاتية ومنها موضوعية ليست بالهينة، ولولا هذه الأسباب وموجبات اللحظة القاهرة لما وجد المتطلعون من المجتهدين والأعلام المتفتحين ما يلزمهم بالخضوع للآراء الأخرى من المعاصرين لهم داخل أروقة الحوزة ــ والتي لم تستوعب التجديد لا نظرا ولا تطبيقا مهما قلوا أو كثروا..

وإذا عدنا إلى الحديث عن الشعور بالغموض تجاه الحوزة فهذا لا يخص من يرمقها عن بعد، بل ينطوي على

مثله النشء الذين انتظموا داخل سلك الحوزة من المبتدئين في حلقات وصفوف الدراسة المقدماتية، وربما استمر النظر بعين الريبة إلى الواقع والمستقبل مع طلاب المراحل اللاحقة أيضا!! فكم من هؤلاء من يكبت في داخله ألوانا من التوجس والتحسس!! بل إن يقيني يرى أن هذا هو المبرر لبعض حالات الانسحاب الصامت من الحوزة والتي شهدناها على مَرّ سني عمرنا الحوزي وهو ثلاثون عاما..

ولا زالت لدي خاطرة كورقة صفراء قديمة تروي لقاء جميلا مع شخصية أكاديمية مرموقة في المنطقة، وكان يقول: إن تخصصي علميٌ لا يتصل بالعلوم الاجتماعية ولا النفسية ولا السياسية ولا الاقتصادية، ولكنني استخرجت منها قواعد لمعالجة الهّم الثقافي والدور الاجتماعي، وأنا أطبقه في أطروحاتي وتنظيراتي الاجتماعية، بينما لا أظن في الحوزة أنها استطاعت تحويل شيء من النظريات العلمية الجامدة إلى سوائل فكرية واجتماعية ونظامية منعشة؟ وبعد استماعي لمداخلته حدثته على القريحة عن مسطرة العقل العملي كمثال على ما ينشده، وأن لهذه المسطرة ـــ التي هي واحدة من الملفات التي اشتغل علم الأصول بتشذيبها وإضافة الكثير من محدداتها ـــ في الشأن العام ما لمسطرة كبار فلاسفة

العصر في التمدن الاجتماعي المعاصر، ورأيت حينها علامات السعادة في محياه فندمت منذ ذلك اليوم على ضعف الترجمة والتصدير للمطالب العلمية التي لو وصلت ذوي الاهتمام لاعتزوا بها ولأفادوا منها، وإن كان قسط منها لا يزال في طور الجدل، بل لا تزال حاجتها للبحث في ازدياد..

ولكن قليل من يجرؤ على محاولة السؤال الصريح والمباشر من قامات المجتمع ونشئه.. وقليل من يضع الخطوة على طريق فهم الأدوار والتفهم للمسؤوليات، والمديات الحقيقية للدراسة الطويلة والمفعمة في العلوم الإسلامية.

فكان كالمفاجأة لي أن تقدم أحد الحظيين من أبناء هذا الجيل الصاعد، وهو أبننا زهير النجاد "باركه الإله" ناثرا باقة من الأسئلة الملحة في هذا الشأن وبشفافية لمست فيها تعبيرا عن الثقة الأبوية، كما أطمئن إلى أنها لم تتمكن من أعماق شخصه فقط، ولكن لدي الإحساس الواثق بتفاعل نفوس العديد من أقرانه وأترابه الشباب معها.

وبالرغم من عدم شمول استفهاماته لكل ما كنت أحلم بالفرصة للحديث عنه وإيضاحه إلا أن هذه الحزمة من

الأسئلة استطاعت أن تلجأني للحديث دون تعمق ــ طبعا ــ عن مرحلة التكوين والصيرورة لبعض النظريات اللغوية والأصولية والفقهية، التي وإن لم تكن اجتماعية أو سياسية أو ثقافية في مسارها العام، ولكنها تحمل مبادئ فلسفية وعلمية أعتقد شخصيا أن لها قابلية التأثير على نتاجات العقل البشري حتى خارج حقلها الأصولي والفقهي كما كان الحال مع ثلاثية أرسطو[١]، وثلاثية هيجل[٢]، التي حققت امتدادا خارج النطاق الفلسفي وأصبحت تتعايش مع الواقع المعرفي والسياسي والاقتصادي مع الفارق الواضح طبعا (نقولها حتى لا نقع في مطب المغالاة السمجة)، فمن النظريات عيون تتفجر في مربع معين من الأرض ولكنها

---

(١) الثلاثية الارسطالية وهي: ١- قانون الهوية. ٢- قانون التناقض. ٣- الوسط المستبعد، وهي الأسس التي واجه بها أرسطو السوفسطائية وبنى عليها فكرة اليقين، راجع لمعرفتها ولطبيعة الهجمة عليها والدفاع عنها كلا من: المنطق "نظرية البحث". جون ديوى. للمترجم العملاق: زكي نجيب محمود. والمنطق للمفكر الكبير مرتضى المطهري.

(٢) وتسمى أضلاع المثلث الجدلي الضلع الأول يدعى بـــ"المباشر"، أي القضية، والضلع الثاني أسماه بـــ"التوسط"، وهو النقيض، والثالث عرفه بـــ"المركب"، أي ما يجمع بينهما.. راجع: المنهج الجدلي. إمام عبد الفتاح إمام. ص١٥٠. ولا بأس بمتابعة صفحات هذا الكتاب الذي يؤكد على خطأ ترجمة جدلية هيجل ويزعم أنه لم يبطل نظرية "عدم النقيض" التي هي إحدى أسس الفكر الأرسطي، وبالتالي هو يتأمل في بعض نقاط المباينة بين المدرستين!

تقتحم بسيل أنهارها نقاطا قريبة وبعيدة، وعلى أي حال فمن غير المتوقع أن تكون بعض تحقيقات الأصوليين أو الفلاسفة الإسلاميين أقل تأثيرا من الفلسفة اللغوية لـــ"فتجنشتين"[1] وغيرها من الفلسفات التي وصلت أشعتها إلى خارج حدودها الفلسفية، وما هذا إلا شيء من التصور أضعه بين عَينَي القارئ، ولا أدعي أنه ضرورة غير قابلة للمحاجّة.

وإنما تجنبت التعمق لعدم مواتاة الوقت وعدم موافقة الفرصة، ورغبة مني في أن يتمكن من مطالعة هذا الطرح الخاص أكثر عدد ممكن ممن يعنيهم أن يطلعوا على ما تحت هذه المنارة الإسلامية. وكالعادة فإن الحديث عن العطاءات والمنجزات الخاصة بتاريخ وحاضر الحوزة العلمية يجعل بعضهم يتوهم في المتحدث أنه ينكر النواقص في ساحتها، أو يتغاضى متعمدا عن نبتات الشوك على أرضها، ولكن أؤكد على أن هذا من اللوازم الفاسدة التي يقع فيها بعض القراء المتشنجين أحيانا، وإلا فنحن لا نجد بدا من الاعتراف بالخلل والعثرات التي قد لا تكون قليلة في نسبتها؛ بل ولا نقلل من غرابة أسباب بعضها أيضا.. لذلك لا زال أمام

(١) سنتعرض لها في مستقبل الإجابات الآتية إن شاء الله تعالى.

مشروع التطوير الذي يطمح إليه ذوو الرأي والهمة في الإصلاح من أعلام الحوزة معترك ومعاناة ليست بالقليلة! ولكنني أعيش شعورا يكبر كلما تقدمت بي التجربة بأن هناك هضما واستلابا للمنجزات والتركة العلمية الحوزية خصوصا والإسلامية عموما، وأن الحديث عنها لا يزال أضعف من الضعيف؟!

لذا أراني هممت هنا بالكشف عن جزء منها متجاوزا في الحين ذاته عن كثير من نقاط الخلل والمصاعب التي تواجه كل من يفكر في التجديد بصوت مرتفع مما هو معلوم للأكثر، أو مما هو بحاجة إلى دراسة نقدية تبحث في الأسباب والمسببات والتطلعات؛ لأن فسح مجال الكلام على كل ذلك من شأنه أن يزيد في طول وعرض وعمق مربع الحوار؛ لذا فمن الأفضل أن نتربص به فرصة أخرى إن شاء الله تعالى!

حقيقة وطريقة الكشف عن الذكاء في الحوزة

س/ ما هي المؤشرات التي تدل على أن هذا الإنسان يجب أن يكون عالم دين؟ فمثلاً مؤشر الذكاء الرياضياتي وحب الرسم قد يؤشر إلى كون الإنسان مهندسًا وهكذا..

ج/ الأمور التي يبدو معها الإنسان المؤمن قمينا بالانخراط في سلك المعاهد العلمية الدينية هي: النباهة (الذكاء)، والذاكرة، والصفاء، والرغبة..

وهناك ما كان يعد سمات متعددة للذكاء والذاكرة والصفاء لكنها تحولت اليوم ــ بفضل الانفجار المعرفي ــ إلى فصول وملفات ضخمة ضمن العلوم الإنسانية...وطبعا ليس من المحبذ استخدام تلك المقاييس الدقيقة بحذافيرها، ولا أن نطالب بنتيجة تامة لكل مقياس من تلك المقاييس لأنه كما أشار "آلان بونيه": أن بعض تلك المعايير لو طبق لما وجدنا من البشر سوى عدد قليل ممن يمكن أن يعتبروا

أذكياء بحق[١]!!

أنواع الذكاء الأمس حاجة بحياة العلماء

تحتاج شخصية الطلبة أولا إلى نوع أساسي من أنواع الذكاء، وهو ما يسعنا تسميته بالذكاء الرياضي والمنطقي الذي يُمكّنه من التفكير والفهم والاستيعاب والتعامل مع العلوم، بل من دون هذا النمط من الذكاء لن يكون قادرا على تمييز الأفراد ذوي القدرات المشابهة فضلا عن تقديرهم وحسن التعامل مع نتاجاتهم والاستفادة منها، ومن بعد هذا النمط تأتي الحاجة إلى جوانب متعددة للذكاء من قبيل ما يسمى بالذكاء الانفعالي، والذكاء الاجتماعي، الذي يفرز مهارات العلاقة مع الأفراد وأطياف المجتمع، ولنا أن نضع هذين النوعين إلى جنب الذكاء الذاتي أيضا والذي يستطيع به تمييز نقاط الضعف والقوة في نفسه، فهذه ثلاث من المفردات الذكائية الفاعلة في بداية ومستقبل طالب العلوم الدينية..

ولست أدري بمدى الصلة بين هذا الذي ذكرته لكم وبين نظرية الذكاءات المتعددة لـــ(هوارد غاردنر)[٢]، إلا

---

(١) الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله: ٢٠.

(٢) غاردنر هو بروفيسور في علم النفس المعرفي التربوي في جامعة هارفارد لاقى كتابه (الذكاءات المتعددة) صدى واسعا في عالم المعرفة اليوم.

أنني أعني ما أقول: من أن هذه الأقسام إذا توفرت في شخصية السائر على طريق العلوم الدينية وحصل بينها ما يشبه التوافق الشبكي فإنها ستكون خلاقة وسيحقق الحد الكافي من الذكاء وهو: القدرة على التعميم والتجريد والتعرف على أوجه الشبه بين المواقف المختلفة والتكيف مع المواقف المستجدة، ولا أخفي عليكم اعتقادا أن الفرق بين التدني والتدين أو التزمت والالتزام ومن ثم جودة المواقف الدينية التي تعكس تفاعل طالب العلوم الدينية مع الأحداث المختلفة هي أيضا على علاقة بالتوافق شبه الشبكي بين هذه الأقسام من الذكاء.

وخلافا لما تصورته يا عزيزي فإننا لا يجب أن نبالغ في المؤشرات لأن ذلك سوف يجعلنا ننتخب شخصية طالب العلم على أساس ما نلمسه فيه من مؤشرات، وهذا الكلام تابع لبعض الأصوات والحناجر التي تسخر من انفتاح الحوزة على كافة المقبلين الذين يتقدمون بطلب الانتساب إليها مع الإغضاء عن ملاحظة فشلهم المدرسي أو في الحياة مثلا؟!

ولكن المعلومات العلمية الحديثة تؤكد أنه لا غنى عن التجربة لإبراز أنواع الذكاء لدى الإنسان؛ لأن الناس يولدون ولديهم كفاءات ذهنية ضخمة وأن القوة والضعف

في بعضها من شأن البيئة أو التربية إذ قد تكون فعّالة وقد تكون غير فعّالة..

فبعض البحارة مثلا لديهم ذكاء خاص أبدعوا من خلاله أساليب في التغلب على الأمواج والرصد الفلكي للنجوم وتقلبات الأجواء لا يعرفها إلا جهابذة وعباقرة الرياضيات، والفيزياء والفلك الذين كانوا يعيشون خارج ذلك المحيط من قبيل "كوبر نيك" و"إسحاق نيوتن" و"ألبرت أينشتاين"، وغيرهم..

ولعل تاريخ المجتمع الدراسي الديني(النجف/قم) يشهد بأن التربية العلمية فيها استطاعت أن تنمي تلك القدرات لدى بعضهم وترفعه إلى درجة مشاهير العباقرة في العالم بعد أن كان في ظاهره إنسانا عاديا أو أقل من العادي!!

ومن أطرف ما سمعته في مجال المقارنة قبل وبعد التجربة أن أحد الأعلام في النجف الذي قد رحل قبل سنوات وكان قبل أن يبدأ التجربة العلمية قد فتح الرسالة العملية ووقف على المسألة التي تشير إلى وجوب إزالة الحاجب في الوضوء فما كان منه إلا أن أخذ الموسى وحلق حاجبيه!! ولكنه وبعد التجربة العلمية الطويلة أنتهى به المطاف إلى

كتابة أكثر من عشرين مجلدا في الفقه وهي اليوم في متناول جل أعلام البحث الخارج![1]

إذن فالحكم على الأفراد الذين يمموا الحوزة باختيارهم قبل فرصة التجربة حكم إقصائي ظلوم!

وليست هذه نبرة تنديد بالدعوة لمشروع التطوير داخل أنظمة الحوزة، ولا هي صرخة نابذة للمناداة على ضرورة الدراسة للأنظمة الحالية فيها، ولا هي عذل للقول الذي يؤكد على أهمية الجد في ملاحظة الثغرات وتقديم ما من شأنه رفع نسبة الذكاء في طلبة العلم، وهكذا كل مطالبة تبتغي الإصلاح ولا تقصي أحدا، ولا تقلل من شأن أحد بلا ميزان.. فإننا لا نرتاب من هذه الدعوة أو تلك، بل نعتبر بأن أيا منها مطالبة مشروعة، والجميع معنيون بإحلالها محل التنفيذ، بل كلنا ندرك أن التهاون في هذا الأمر هو الذي قد يرشح عدد الباطلين والعاطلين في الحوزة للزيادة، وأيضا ندرك كم ستتمادى المأساة حينما يصرف عليهم كما يصرف على المشتغلين؟!

---

(١) سمعت هذه الحكاية من العلامة الراحل السيد ناصر نجل السيد هاشم (الكبير) أثناء لقائي به في منزله الكائن بمحلة الشعبة، وكان ينقلها لي عن لسان صاحب الحكاية نفسه و قد سماه باسمه..

ومن طريف ما ينقل أن الشيخ المفيد الزعيم الأقدم للحوزة العلمية كان مؤمنا بهذه الاستراتيجية، وقد بالغ فيها حتى صار يتصيد ذوي الذكاء الخاص من الصبيان ويتكفل بأمور التحاقهم بمدرسته التي كانت تسير بأيدي أعلام تحت إشرافه ومراقبته، فكان يدور على المكاتب والحوانيت فيتلمح الصبي الفطن فيستأجره من أبويه!![1]

وهذه هي الخطوة التي حرص عليها المفكر الإسلامي الأكبر السيد محمد باقر الصدر من حيث أناط بالمرجعية مسؤولية جلب العناصر الكفوءة إلى الحوزة[2].

كل هذا للتأكيد على أهمية المطالبة بالتطوير وما ستضيفه من جدية الانضباط ولكن لا يجب أن نشعر بعدها أننا في غنى عن التجربة والاختبار لمن لا تتولد قابلياتهم إلا مع مخض التجربة ولا تتفجر منابعهم إلا مع الضغط الديناميكي العقلي..

بل إن التذرع في هذه الدعوى بالعصرنة هو من قلة الإحاطة بواقع العصر الحديث!! لأن مما أنجزه هذا العصر هو

---

(١) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ١٧ / ٣٤٤.

(٢) المرجعية الصالحة والمرجعية الموضوعية. ضمن مقدمة كتاب مباحث الأصول بقلم السيد كاظم الحائري. ج١. ٨٤.

تأسيس الجامعات المفتوحة والتي لا يوجد فيها متطلبات رسمية مشددة لدخولها فيستطيع أي فرد الالتحاق بها كما لا تتطلب تجمع الطلبة في فصول دراسية في الحرم الجامعي وتقدم التعليم من خلال البريد أو البث الإذاعي أو التلفازي مثلا[١].

وهذا يأتي إيمانا منهم بأن الناس يختلفون في قدراتهم وكفاياتهم؛ ولذا ما حصدوه من عقول بفتح باب التجربة يفوق ما حصدوه بالدراسة الانتظامية التي تتبع متطلبات وشروط دقيقة ففي أول جامعة من هذا النوع ببريطانيا والتي بدأت عام: ١٩٧١م بدأت بحوالي ٢٤,٠٠٠ طالب وبعد سنوات قليلة ارتفع العدد السنوي من المقبولين إلى ٧٠,٠٠٠ طالب، وهكذا يصل العدد في جامعة غاندي المفتوحة بالهند إلى ٥٤,٠٠٠ طالب..[٢].

ومرة أخرى علينا أن نتذكر أن النبات المعدني الذي يندس نحو الأسفل كمعدن الذهب والفضة ولا يخرج إلا بتنقيب هو أعلى قيمة وأغلى سعرا من النبات الخشبي الشجري الذي يشمخ نحو الأعلى!!

---

(١) الموسوعة العربية العالمية:٨/١٤٩.

(٢) ن/ م.

الموقعية البناءة والدفاقة لعالم الدين

س/ ما الذي يمكن أن يدفع بالإنسان ليكون عالم دين؟

ج/ التعلم ينطلق من حب النجاة وإدراك أهمية البصيرة والتنور هذا كله على مستوى الغاية الذاتية، ويبقى أنه يتحمل وظائف ومسؤوليات أخرى هي غايات ودوافع غيرية تمثل ما يتحمله المعلم الديني من وظائف عديدة ومن أولوياتها:

التلقي والتلقين

المحافظة على المنظومات الفكرية للدين بدراستها وإتقانها ثم تعليمها للآخرين بما يستمر معه تعاقب أجيال التعليم والتعلم..

التنشئة الأدبية

التربية للأجيال المؤمنة على طبق التعاليم الشرعية، ونقش ملامح الجمال الإيماني ليحقق به مشهدا خلابا وجذابا ترثه الأجيال التي لا يصلها الصوت ولكن سيصغون

بعقولهم لتعابير الصورة التي حفرها على صخرة الاجتماع الاسلامي!

الميزان العادل

الإصلاح المتمثل في عدالة الحكم بين الناس، ولباقة الأسلوب في معالجة الصدامات والاختلافات في كل صورها الضيقة والواسعة.

الخطاب الحجاجي

الملاذ في الشبهات والتشابكات الثقافية المنافية لأسس العقل والدين، إذ ما من عصر يخلو من دعوات الإلحاد والتشكيك في المسلمات، والترويج للأغاليط المنطقية والدينية، مضافا إلى الفتن التي تنتهي باختطاف النفوس والعقول، وهو أعظم وأنكى من اختطاف الأرواح، ومن الظريف أنني كنت أتأمل الفِرق والمقالات والتيارات، وعموم المتغيرات التي تستنفر جهود العلماء فرأيت أنها متسلسلة مع القرون بدءا من الردة والخوارج ووصولا إلى الأخبارية والبهائية وبعض وجوه الشيخية، ولك أن تتصور النتيجة لو أن الساحة الإسلامية كانت خالية من ضبّاط وجنود العلم في أوقات هذه الغزوات الفكرية المختلفة!! ناهيك عن المواجهات العلمية التي اتفقت مع حركات

متناثرة هنا وهناك، قادتُها هم أشخاص وأعلام خرجوا بقول مختلف في شيء من تفاصيل العقيدة أو الممارسة، وإن لم تحقق فعلا تيارات أو مقولات منفصلة.

ومجمل القول: إن الكثرة الكاثرة من الكتابات الخالدة للعلماء كانت انطلاقة دفاعية أي أنها قد ولدت كردة فعل لما كان يحدث في وقتها!!

ومما تحرك به الخاطر فكرة تصنيف كتاب للحركات الفكرية والمواجهات العلمية لها حسب التسلسل الزمني، لأن ذلك يتيح لنا الاطلاع على مراحل التطور الفكري وسيرورة العقل الإسلامي مرحلة بمرحلة.

إسعاف السنة المحمدية

إن الإسعاف المتأهب والذي نراه في وضع الاستعداد دائما لا بد أن يبتني على حسابات وتوقعات للحوادث، وإلا فسيكون سببا لبث القلق غير المبرر..

وبهذه النظرة ننظر إلى شدة تأكيد الرسول صلى الله عليه واله على سنته وإشفاقه عليها من الاندراس بعده! فإن هذا الخوف لديه لا بد أن يكشف عن معاناة طويلة المدى ضمن الواقع المستقبلي للسنة؛ لأن مقام الرسالة مبرأ من

الخوف المرضي على المستوى النفسي، ومنزه عن سوء الظن المحض بالأمة على المستوى الأخلاقي، فهو صاحب الخلق العظيم، وهذا معلوم بالضرورة؛ لذا فإن ما بدا منه صلى الله عليه وآله من خشية وقلق على السنة هو تنبؤ وكشف لحجاب المستقبل عما سوف تلاقيه سنته في القريب الاستمراري من إفسادٍ بعد مزجها بآراء الرجال فتفسد كما يفسد اللبن بالماء والخل بالعسل؟!

والمطالع للتاريخ الإسلامي سيتفاجأ بأن السنة تحولت إلى مادة إعلامية بين بعض الساسة، فكم سنة أماتها سابق وأحياها لاحق منهم في عملية أشبه بإثبات الوجود.

يرى بعضهم أن السنن التي أحياها عمر بن عبد العزيز أو المأمون أو من عداهما لم تكن إلا إرغاما وإدغاما لخصومهم!!وطبعا فإن تصديق ذلك أو تكذيبه متروك إلى الباحثين والمحققين..

والشيء الذي لن يتغير في علمنا هو أنها حرب عوان وطويلة حتى أن أهل البيت عليهم السلام لم تثنهم التقية من أن يفتحوا دوائر صغيرة من الحجاج والكلام والدفاع عن السنة وبيان مغبة اتباع الرأي والذوق الاستحساني أو

الاستهجاني مما يمحق السنة محقا؟!

والعجيب أن للثقافة المجتمعية أيضا ـــ وليس الساسة فقط ـــ نصيب الذئب في المكر بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، لذلك نرى وعلى مستوى قطاعات اجتماعية واسعة من يشيطن بعض السنن المحمدية ويلغيها من الحياة الاعتيادية كالتزويج على الأساس المادي المحض لا على الأساس الديني والأخلاقي الذي حرّص عليه الرسول صلى الله عليه وآله، وكثيرا ما يتعدى النفاق الاجتماعي إلى درجة الاستهزاء وأحيانا يبلغ حد الحقد والإسقاط لمن يتبارك بهذه السنة أو تلك؟!! فهذه حالة تعزز إيماننا بالتنبؤ المحمدي حول خطر هؤلاء المزيفين على مصير السنة..

وهنا يأتي من وفق للصدق من العلماء في مقدمة المؤمنين الذين يتحلون بروح التجند لدين الله ليحموها ضد أي محاولة إماتة، ويسعفونها من خطر الاستهداف المؤبلس!

رجل الدين وروح الإلهام

واللافت في الأمر أن عالم الدين من الشخصيات الخاصة والفريدة (وإن لم يكن الوحيد اليوم) التي تتلاقح عزائم الناس ومكارمها مع ما يتدفق من عزيمته ومكارمه،

إذا كانت ضافية عليه وصالحة للتأثير طبعا، أي أن العزيمة والمكرمة يرتبط تأثيرها وصلاحيتها للانتقال والسراية في نفوس الشباب بطبيعة أهلها، ويأتي في طليعتهم طالب العلم الصالح والمتماهي مع عصره.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

ولا يكفي أن يمثل هذا الكلام خبرا في الماضي، بل هو نداء لطالب العلم في الحاضر؛ إذ يجب أن يكون عالم الدين من أوائل ذوي العزائم والمكارم التوليدية الخلاّقة التي تتسبب في فتح باب المنافسة، وتكاثر الإبداع بين أبناء الجيل الصاعد.

وهذه نظرة مبنية على التجارب التي أثبتت بأن أثر المجددين والجادين من رجال المعرفة لا بد أن يُقتفى ولو بعد موته؛ ولذا فأنت لا تكاد تجد عالما محققا اليوم أو الأمس إلا وكان مشدودا أيام صباه وبداية مراحله إلى عالم، أو محقق كان يكنُّ له الاحترام، ويدين له بالتميز والتأثير، ويعترف بأنه ملهم بالنسبة له، فكتاب آداب المتعلمين للخواجة نصير الدين الطوسي يعرّفنا بمقدار تأثره بشيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي؛ إذ يستشهد به ــ دون من سواه من الأعلام ــ

في كل إرشاد وتوجيه يوليه المتعلمين للعلوم الدينية، ومن يلاحظ حياة وسيرة ابن أبي جمهور الأحسائي ويقف على الخواطر التي ذكرها في مقدمات كتبه وصنعته يتضح له كم هو مفتون بأستاذه الشيخ حسين الفتال[١]، وكتاب مع علماء النجف الأشرف ـــ هو الأخرـــ ينبؤنا إلى أي حد انطبعت شخصية السيد الأمين على الشيخ محمد جواد مغنية والذي يقول إذا قرأت ما كتب عنه كأني كنت معه منذ ولادته إلى اليوم الذي انتقل فيه إلى رضوان ربه[٢]، بل قد يصل التأثر إلى حد المحاكاة والمماهاة الإيجابية كما عرف عن السيد جمال الدين الگلبايگاني وتأثره الشديد بأستاذه الميرزا النائيني[٣]، والقائمة بذكر أمثلة من الأولين والآخرين تطول..[٤].

---

(١) الرسائل الفقهية: ١٠٢. ط جمعية ابن أبي جمهور الأحسائي.

(٢) مع علماء النجف الأشرف: ١٧٣.

(٣) من يراجع تعاليق العروة الوثقى يرى التطابق غير المسبوق بين تعليقتي التلميذ والأستاذ.

(٤) هناك ارتباط تكاملي بين الوظائف المبينة هنا وما بين في العنوان اللاحق" من إدارة الذات إلى إدارة الحياة" في الصفحة:١٠٥.

عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(١)

س/ إذا ما تغاضينا عن العلوم الدينية، فإن هناك علوما بشرية الأصل اتخذت موقعيتها في الحوزة هل يمكننا القول بأن الطبقات العلمية في هذه المدرسة الدينية تعاطت مع تلك العلوم بالنقد وما هي حدود النقد لديهم؟

ج/ يعد أساتذة وأعلام الحوزة من رجال التجربة الجدلية في الدائرة العامة للفكر والتي تجعل كلا منهم على صلة نقدية بمختلف العلوم التي تغذي اهتماماته، وقد استطاع النخبة من العلماء أن يقدموا للأمة وللبشرية عامة الدرس العملي للموضوعية، فكشفوا بطريقة تعاملهم مع التراث والحديث أن علاقة النقد ليست علاقة قبول مطلق أو نفي مطلق..

ومثالا على ذلك فقد تعرض المنطق الأرسطي للنقد الشديد من قبل مجموعة من الفلاسفة الغربيين منهم الفيلسوف الفرنسي ديكارت (ت ١٦٥٠م)، والفيلسوف

الفرنسي الآخر فرنسيس بيكون (ت١٦٢٥م)، والفيلسوف الأمريكي جون ديوي (ت١٩٥٢م)[١]، ولا زالت وحدات قطار النقد تتزحلق على سكة المنطق الأرسطي.

ولكننا نرى مجموعة من فرسان الميادين العلمية من الإمامية قد تصدت لإعادة دراسة المنطق الأرسطي ـــ بنحو نصدق معها بالالتفاتة المبكرة أو المتأخرة نسبيا لضرورة النقد ـــ ولم تقدس هذا المنطق إلى حد يجعلها تسخر من الفلسفات العصرية الناقدة له، بل أعلنها بعض رجالات الفكر من المسلمين الشيعة صراحة: نحن يجب أن لا نقبل المنطق الأرسطي بعيون مغلقة وألا ندينه بعيون مغلقة أيضا[٢]..

ومن أجرأ الأصوات على المنطق الأرسطي في حينها مبحث عميد المدرسة الأصولية في القرن العشرين ـــ فيما أرى ـــ الشيخ النائيني وتصحيحه لمبدأ العلية بإضافة لم يسبق إليها!![٣].

كما وكان كتاب الأسس المنطقية للعظيم الصدر عبارة

---

(١) دراسات في المنطق وفلسفة العلوم. حسن حسين صديق. ٦٣.

(٢) المنطق. مرتضى مطهري. ١٩.

(٣) بحوث الدليل اللفظي السيد الهاشمي. ٢. ٣٦.

عن كنانة من السهام رمى بعضها على المذهب التجريبي، وبعضها على المنطق الوضعي، ولم ينس أن يرمي المنطق الأرسطي أيضا، إذ جرحه بنصال النقد، وربما بالغ في بطلان بعض صياغاته، كما صنع في رفضه للمعالجة الأرسطية لنظرية النفي غير المحدد[١]!

وربما عد في قافلة هذا الارتحال المعرفي الشيخ علي كاشف الغطاء الذي التفت إلى أن القواعد الأرسطية لم تكن مسلمة في العصور السابقة، وأشار إلى المدارس التي تنكره أو تقلل من شأنه أو تأخذ منه وترد، كما أبرز ملاحظاته الشخصية في مجلدين[٢].

والحقيقة أنه في تراجم علمائنا الكثير من المصنفات التي جاءت شروحا أو حواشي على الشمسية، وهي ليست خلوا من المطاردات حول بعض أسس المنطق، وإن لم ينشر الكثير منها بعد، وفي سابق الأيام عند اشتغالي بكفاية الأصول كنت أستظهر أن للشيخ الكاظم الخراساني نظرات منطقية وفلسفية خاصة، وإن اعتاد بعض الشراح أن يطلق عليها تسامحات ظنا منهم أنه لم ينضبط بضوابط العلوم

---

(١) الأسس المنطقية للاستقراء. ٥٢.

(٢) نقد الآراء المنطقية. الشيخ علي كاشف الغطاء.

العقلية!

بل إن الجوادي الآملي أحد أبرز فلاسفة هذا الجيل ـــ والعهدة على الناقل ـــ قد أضاف في الوحدات الثمان المذكورة في قاعدة التناقض التي هي ثالث القواعد الأرسطية[1].

(١) راجع الصفحة: ١٣.

عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(٢)

س/ ما المجال الذي يتاح لطالب العلم التقدم فيه ولا يتاح لغيره؟

ج/ تحتوي المجالات التي يتعمق عالم الدين في دراستها كالفلسفة والكلام والأصول واللسانيات والمنطق على الكثير من المباني التي تغطي مساحة الفكر الديني، كما تتصل بكثير من جوانب الفكر البشري العام لا سيما الفلسفة والمنطق، فهذه العلوم جميعا هي التي ترسم أمام طالب العلم التشوير الطرقي[١]، وبها يعرف أين يتاح له التقدم وأين يجب عليه أن يتوقف.

ومن هذا القبيل انفتاح الحوزة على الدراسات الخاصة بنظرية المعرفة التي من الواضح لدى عموم الدارسين أنها لم تكن موجهة للفكر الديني على وجه التخصيص، يقول الدكتور الفندي: هي عامة وشاملة لكل ما يتصل بموضوعة الإدراك البشري، أعني المعرفة في عمومها سواء كانت عقلية

---

(١) مصطلح للعلامات التي توضع لتنظيم السير في عرف نظام المرور.

أم نقلية، طبيعية مادية أم ميتافيزيقية[١]، بل حتى اللغوية والنحوية فمثلا نحن نجد أن للمذهب المعروف بالمذهب الذاتي الذي أسسه الصدر في كتاب "الأسس المنطقية للاستقراء"، مضافا إلى انبساطه على كل العلوم التي تنبسط عليها أضواء نظرية المعرفة، تأثيرا مباشرا على الدراسات اللغوية والنحوية خصوصا، فإن دليل القياس النحوي مثلا قد تجدد مع أطروحة هذا العَلَم الفذ، فالحدود والنظرات التي عدّل بها مفهوم وواقع الاستقراء تنطبق على القياس في النحو؛ لأنه شكل من أشكال الاستقراء، ووجه من وجوهه[٢]..

ما نجهله في حقيقة الإبداع

ومن واقع تأملاتي الشخصية صرت أفهم أن وجود حواضر علمية تضم المتقنين للأدوات الفلسفية والمنطقية وسائر مفاتيح الفكر البشري يزيد في أهليتهم ويجعل من أفرادها المتقنين أقدر على المساهمة في تحرير وتطوير نظرية المعرفة أو أي نظرية فكرية مركزية أخرى، ليكونوا جنبا إلى جنب زعماء الفكر في الجامعات الإقليمية والعالمية، لذا فأنا

---

(١) مع الفيلسوف: ١٣٩.

(٢) راجع كتاب: النحو العربي. د. علي الخزاعي.

أؤكد على الكلام السابق، وأن من عناصر الإبداع التجمع الواسع لمختلف العقول باتخاذها نقاطا جغرافية محددة تكون أوطانا علمية مختصة، فإن هذا ناظم مشترك بين الجامعات العالمية الأكثر إبداعا، وأنا لم يسبق لي أن قرأت إحصاءات رسمية في هذا الخصوص ولكننا نسوق أدلتنا هنا بحسب بعض التقارير الإلكترونية التي يرجى أن تكون دقيقة:

١- إن الجامعات الأكثر إنتاجا هي ذات الكثافة البشرية..

٢- تضم جامعة أكسفورد ٢٣,٠٠٠ طالب!

٣- وتضم جامعة كاليفورنيا بركلي ٣٧,٠٠٠ طالب..

وهاتان الجامعتان هما من بين الأعلى مرتبة في صف جامعات العالم..

٤- وفي قم المقدسة وحدها ٥٠,٠٠٠ طالب! وهي نسبة ليست بالعالية نظرا إلى سعة العالم الشيعي، وعدم تعدد الجامعات الدينية التي تختص باتجاهاته، ولكن حسبها أنها قد حققت التكتل العلمائي الذي لا يليق به إلا الحراك العلمي الجاد، والذي به تستطيع إطلاق حملاتها الفكرية لصد الهجمات المختلفة ولو بأقل درجة مقبولة أي حتى لو كان

دون مستوى الطموح، لأن ما يهم الحوزة في المرحلة الأولى أن لا تتراجع إلى نقطة السكون والاستسلام، وقد تحدثت عن شيء مما امتازت به النهضة العلمية والمعرفية في هذه الحوزة في حوار سابق[١] تم نشره، ولعلي أضيف هنا سرعة قيام وانتشار المراكز الدرسية والبحثية في قم وحدها أي في العهد الجديد لجمهورية إيران الإسلامية..

ففي أقل من أربعين عاما بني أكثر من ٤٠مركزا للدراسات والأبحاث الإسلامية في إيران بحسب إحصائية السيدة فاطمة برجكاني[٢]، واللافت أنها لم تتناول المعاهد والمدارس، بل ولا كل المؤسسات، والمكتبات التخصصية، والدوريات التي نعرفها وعايناها مما أنشئ في هذه الفترة، وهذا شارة على واقعية الدعوى التي نوهنا بها في فاتحة الحوار إذ كنا نقول: بأن المتطلعين من المجتهدين والمتفتحين من الأعلام قادرون على صناعة واقع جديد مهما كانت قلتهم، وأن الشيء الوحيد الذي يكبّل أيديهم ويقيدها إلى الخلف هي الموجبات والعوامل السياسية والاجتماعية

---

(١) جواهر الكلم. للمؤلف. ٣٦-٣٨.

(٢) دليل الجامعات ومراكز الدراسات والأبحاث في إيران. طبعة مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. ١٢١-١٦٠.

والطائفية غير المواتية فقط، وأما الذين لا يستوعبون التجديد أو يتوجسون منه من أبناء جنسهم ومعاصريهم ممن نحترم نظراتهم وتشخيصاتهم فلا يخلقون مانعا حقيقيا مهما بلغت عدتهم العلمية، ومهما زاد عددهم فرأيهم وموقفهم لا يضر مع انفتاح الظروف؛ لذا فإن استمرار بعض الناقدين في الصعود والهبوط بنبرة النقد مع هذه المواجهة الداخلية وترك المواجهة الخارجية الأعمق هو من النقد الانتقامي لا النقد العقلاني، وكفى بهذا تمايلا يشوه خط النقد!!

وهكذا فإننا بحاجة في نهاية هذه الإثارة إلى الإشارة بأنني أتحفظ على أي تصور يرى أن الرأي السائد في طبقة شيوخ الحوزة المسنين وكبارها هو التحسس والتملص من دعاوى التجديد، وهناك الكثير من التجارب بدءا من منتصف القرن العشرين وإلى يومنا هذا شاهدة على خطأ هذا التنميط والتصنيف، هذا ونحن لا ننكر وجود منارات علمية داخل الحوزة تهتف بالصوت المعارض لمشاريع التقدم، بل والمحارب أحيانا، ولكني أرى بأن تحمل مثل هذه الأصوات المبنية على النية الحسنة ضروري جدا؛ لأنه يسهم في تحقيق جو من المنافسة الواقعية بين الفكر والفكر الآخر، ونوع من الاحتكام إلى الواقع فهو الذي سينتقي الصحيح

على قاعدة «لا يصح غير الصحيح»؛ إذ ليس بعد اكتمال دورة الحرارة وموجات الصراع إلا إشعال فتيل القنديل والمشكاة المضيئة؛ لذا على المنتصر في المنافسات أن يلتفت خلفه ويرفع قبعة الاحترام لمنافسه وإن بدا ضده في الظاهر؛ لأنه مكون أساس وراء انتصاره!!وهكذا فإن القبول بالآخر المتناقض مع ما نرى ليس صدا ولا إيصادا لبوابة التقدم بل هي حالة زوجية مزاجية تضع نتاجها ولو بغير انتظام !!

التهديدات الجدية في طريق العلم

س/ ماهي المصاعب والمشاكل على هذا الطريق وكيفية مواجهتها؟

تتعدد التحديات بتعدد موقع عالم الدين أي رتبته، وتتمايز بتمايز الزمان والمكان أيضا..

ومجمل المواجهات التي يلقاها هي:

١ـ تحديات البناء الذاتي

وهي كثيرة في واقع اليوم، تبدأ بمشكلة الترشيح أو الترشح للدراسة، ففي ظل غياب عملية الانتخاب يضطر عشاق هذا الطريق عادة لأن يرشحوا أنفسهم بأنفسهم، وهنا يجب عليه بعد الترشح الذاتي أن يتحمل مسؤولية نفسه!!

فنحن قد نتفهم إلقاء مسؤولية تأمين ما يلزم لحركة الطالب والتحاقه بركب العلم على غيره لو كان غيره من ذوي الوجاهة الدينية أو الاجتماعية هو الذي قد انتخبه

ودفعه نحو هذا الطريق فعلا؛ إذ من غير المقبول بأحد أن يزج بغيره في طريق ذات الشوكة ثم يسلمه للمواجهة مع الحياة.. ولكن واقع الكثير من طلبة العلوم الدينية اليوم يشهد بخلاف ذلك، فالغالبية إنما يصعدون ظهر هذا المركب بمحض اختيارهم، ومن الطريف أن أول ما يواجهه الطالب الجديد هو شعوره بأن عيون الآخرين من أرحامه وأصدقائه مفتوحة نحوه تنظر إليه بعين الرهان والتحدي، وتخترق أذن إحساسه هسهسات التحقير و همسات الاستنقاص عندما يتساءل كل من حوله هل بهذا الفتى تحمل وصبر على اللأواء من ضيق المعيشة وشدة الحاجة أم لا؟؟

فهذه أول لعبة إثبات وجود يقتحمها طالب العلم!!

كما يقابل الطالب المسكين وعلى خط البناء الذاتي جملة تحديات أخرى كغموض المستقبل الذي لا تستشرفه الحسابات عادة، وكطول المشوار، وكذا صعوبة الارتهان في الغربة لسنوات غير معدودة!!

٢ـ تحديات المشروع

يبدو الكثير من طلبة العلوم الدينية المكتفين من الناحية العلمية بلا مشروع ولا منجز علمي أو ثقافي أو اجتماعي،

ويخطئ المراقبون في تقدير هذه الظاهرة؛ إذ يظن هؤلاء بأن كل هذه المجاميع من طلبة العلوم لا يحلمون بأي مشروع، أو لم يسبق أن وضعت لهم قدم على هذا الاتجاه...

وهذا من التعليلات الذاتية المسرفة في التجني والتي لا تكف تتوغل وتتكهن في ذات الآخر، والأولى أن نبحث عن التعليلات الموضوعية، وهي التكلفة الباهظة للمشاريع التي يمزق حملها كاهل ذوي التحصيل العلمي..

فكتابة بحث علمي بكر مثلا، قد تكلف طالب العلم عشرات آلاف الريالات، بدءا من مرحلة تجميع المصادر وما يتطلبه من رحلات ولقاءات علمية، إلى تكلفة طباعته، وأجور توزيعه ونشره!! وهذا ما يضغط على مسؤولية تأمينه لحياته ورعايته الأسرية..

وأشير إلى أن الحوزة اليوم تشهد قيام عدة مراكز ومعاهد علمية وتحقيقية فتية تسعى لإنشاء وإنماء، أو شراء، أو تبني الأبحاث التي تتناسب مع توجهاتها العلمية المحدودة، ولكنه تبنٍّ جزئي كما أن طبيعة هذه الإدارات متواضعة لا تزال أقل مما تتطلبه المرحلة!! وربما هي الأخرى تلاقي صعوبات أشد وأكبر مما يواجهها رجل المشروع بمفرده!!

وهذا الدور من التحدي الذي كشفنا عنه إنما يمثل تمنُّع الواقع، ولكن ثمة أدوار أخرى من التحدي تمثل الممانعة التي لا يمكن أن يجتازها العقل المدبر للمشروع حتى لو أمّنتْ تكاليف ومصاريف مشروعه، فهي تصده عن هدفه صدا تاما أو متقطعا، وهي أسباب قد لا نستطيع أن نكشف عنها هنا، ولكنها معروفة للمراقبين.

٣ـ تحديات القوانين الإجتماعية

رأي المجتمعات المتدينة والمحافظة في نفسها أنها رافدة لطالب العلم تحتمي به ويحتمي بها[1]، وأنا لا أعارض رأي المجتمع في نفسه، ولكنني أراه يلقي ببعض العراقيل أمام الطالب الجاد بشكل بريء من التعمد!! وسأعطي أمثلةً هي أشد ما يحاصر أوقات الطلبة الجادين والحالمين الحاملين للفكر النير والحس العملي:

مظلة العالم وعالم المظلة..

تسعى بعض أطياف المجتمع لإجبار رجل الدين على مسار معين أو الوقوف في نقطة معينة لأجل أن يؤمّن مظلة

---

(١) ويختلف وضوح هذا السلوك الاجتماعي مع طالب العلم باختلاف المجتمعات الشيعية ذاتها.

شرعية لهم، وتصله منهم الرسائل والإيحاءات النفسية باستمرار تصارحه في شأن خدمتهم له واهتمامهم به، وأن ثمن ذلك هو مرونته واستجابته لإرادتهم، وقد مرت بمجتمعنا مراحل تاريخية كنت شاهدها أيام طفولتي ومراهقتي، واليوم فقط استطعت أن أدرك ما عاناه (س وش) من علماء المنطقة في مواجهة بعض الإرادات الاجتماعية المتصارعة، والتي تخطط لاستثمار الدين في إعلاميات التنافس التجاري والاجتماعي!!

الإستهلاك الشامل

بعض المجتمعات تعيش الحرص والتقدير لطالب العلم، ولكنه حرص مفرط ومجاوز للحد الطبيعي، فعلى مستوى مجتمعنا المحلي لا يستغني عن حضوره بينهم في أي احتفالية صغيرة كانت أم كبيرة خاصة هي كالزواجات والفواتح والولائم أم عامة.. فهو لا يبدأ طريقه نحو الهدف إلا وقد علق بسنن وفروض المجتمع و على حساب قيمة الزمن لدى المشتغلين.

وليس المناخ لدى المجتمعات الشيعية الأخرى أجمل ولا أفضل فطالب العلم لديهم ربما يمثل خامة إعلامية غضة وثمينة، إذ يُزج به في فعاليات التكتلات السياسية والأحزاب

والمؤسسات الاجتماعية، وسواء وضع على جدول الملتقيات الأخرى أم لم يوضع فإنهم لا يتنازلون عن حضوره ولو ليملأ مقعدا في مقدمة الصفوف فقط وإن لم يشارك بكلمة واحدة!!

وهكذا فإن عليه أن يكون موجودا في كل الأندية والمناسبات، وهذا ما يصهر الطالب في زاوية الواجهة والوجاهة، ويصرفه عن زاوية التحقيق والفقاهة، وربما تربي هذه العادات في نفسه حب الصدارة!!

إذن فبالرغم من النظرة الطيبة التي حملت الناس المؤمنين على هذه المطالبة إلا أنها قد وضعت طالب العلم في موضع الاستهلاك والاستتراف اليومي، وبالتالي سيجبر على الانقطاع عن الشأن العلمي والفكري؛ لأنه يتطلب تقنينا للوقت وهذا شيء لن يجده طالب العلم المتطلع إلا إذا تعاون معه أبناء مجتمعه، وأملنا في إخواننا وآبائنا كبير من هذه الجهة!!

طبعا عندما يصل هذا الصوت التطويري والنداء التحريري ـــ الذي لا يتجاوز به إلا بعض التقاليد ـــ إلى مسامع بعضهم فإنه يترك عنده طابعا سيئا من حيث يرى أن

هذا الكلام يسلب من طالب العلم الروح الاجتماعية، بل يدعوه سلوكيا إلى حس التعالي والشعور بالفوقية أيضا !!

والواقع أن هذا التقرير متعجل فيه ولا ينم عن دقة في الملاحظة.. فلا كل طالب شمّر عن يد الهمة ولبس حذاء السعي في اتجاه المجتمع قد تواضع وتصاغر..ولا كل من [تسترج] باستراتيجية التنظيم للوقت وصرف القوة والطاقة في مشاريع علمية فاعلة يكون ممن أعرض ونأى بجانبه عن بني جلدته وشركائه في المحيط الاجتماعي والثقافي.

ومن طريف السير أن الإمام السيد محسن الأمين "روح الله عن روحه" من القلائل الذين جمعوا بين الحياة في الناس وبين التنظيم المبني على هدف علمي إلى حد جعله يقول: أنفقت من الوقت في التسطير والتسويد والتأسيس للمقالات والكتب أكثر مما أنفقه المجلسي الذي يقال إن عملية تقسيم كتاباته على حياته تنتج كراسا لكل يوم !![1]

فإن هذا الرجل وبالرغم من هذا الاندماج الكبير مع الكتاب والقلم لم يكن ليجعل ذلك مبررا للابتعاد التام عن الحياة الإنسانية العريضة فقد كان والوصف للشيخ مغنية

---

(١) معادن الجواهر ونزهة الخواطر. السيد محسن الأمين: ج٤. ١٤٠.

"رحمهما الله":

«عاش السيد ٨٧ سنة قضاها في القرية الحقيرة والعاصمة الكبيرة وفي الرحلات... وجالسه الفلاحون والعمال والملوك والحكام والعلماء والزعماء... وكان في جميع أدواره وحالاته الرجل الطيب الصريح البسيط العظيم المتواضع»[١].

فمقتضى الحال وطبيعة المجال تدعو طالب العلم الموهوب خاصة إلى الموقف الريادي الذي يتمثل فيه التوازن بين الرغبات الذاتية والرغبات الاجتماعية ولكن التوازن المنشود يجب أن يكون بيده لأنه الأعرف بنفسه وبتشخيص الوقت الفائض على مهامه.

ولكن السؤال الذي يقدم نفسه هو: هل يجب أن نتعمق في التركيز على التحديات التي ذكرناها والتي لم نذكرها وما تمثله من حواجز وموانع إلى حد التشاؤم؟

كلا.. ليس هذا هو الأنسب بالمرحلة، فالحقيقة أن التسهيلات الإلهية والألطاف الربانية تدرك العلماء الأبطال

---

(١) مع علماء النجف الأشرف. الشيخ محمد جواد مغنية. ١٧٣.

ولا تخذلهم النصرة الرحمانية، وليست هذه نظرة هرمسية[١] أو وعود ميثولوجية[٢]، فإن الوقوف على الشواهد والنماذج متيسر لكل من يقرأ تاريخ العلم والعلماء، فعند الاطلاع على تلك السير النموذجية سندرك جيدا أن ما حققه العلماء من تضحيات عجيبة ليست من صنعهم، ولكنها تدخلات ربانية وأن نجاحاتهم هي نتيجة الاعتماد الرسمي من قبل الله سبحانه لسفارتهم عن العلم والدين، وما أعرفه عن نفسي هو أنني لا أكف عن قراءة تلك البطولات عبر التاريخ، بل إني أحفظها وأرددها والسبب هو إيماني بأن هؤلاء الأعلام المتجشمين قد وقعوا في دائرة الاصطفاء الإلهي، وأنهم على خط الامتداد المحمدي فهم حاملون لواء الحمد في الدنيا[٣].

---

(١) الهرمسية تشير إلى المعتقدات الباطنية أو أشكال الغلو في الباطنية.

(٢) الميثولوجية إشارة إلى الأساطير التي تخلق شخصيات خارقين للطبيعة لا وجود لهم.

(٣) اللواء هو ما يجتمع إليه المعنيون كالعساكر في المعسكر وأصحاب الظعينة في القوافل والناس في أماكن التجمعات وجاء ذكر لواء الحمد من شؤون يوم القيامة لاجتماع المؤمنين عنده لهذا قلنا لواء الحمد في الدنيا.

عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(٣)

س/ هل يغفر لطالب العلم الجهل بالعصر الحديث وتطوراته؟

وكيف الجمع بينهما (بين علم الدين وتطورات العصر الحديث)؟

ج/ الاطلاع على التطورات الطارئة على العلوم وبالتحديد اللسانيات والإنسانيات مثلا ليس أمرا ترفيا بالنسبة لطالب العلم الذي ينتهج نهج التحقيق وتقدير نتاجات العقول على اختلاف أرضياتها.. بل قد يشكل نداء كفائيا و هو الذي إذا قام به من يفي عددهم بمنجزهم صاروا خير بدل عن الآخرين وكفوا غيرهم مؤونة الإجابة للنداء الحق ـــ وهذا فيما لو أدت القطيعة للأطروحات الجديدة إلى وهن عنوان القاعدة الدينية العلمية، بحيث تتحول هذه المدرسة الجامعة ـــ في عدسة الرأي العام ـــ إلى مجرد تراث أثري يحكي القرون الخوالي!!

ويزداد الأمر وضوحا لو تسبب الإغضاء عن تلك

المبتكرات والنظريات في تفويت ما يؤهلها لصد هجمة الشبهات وكسر قوتها.

حاجز الحساسية بين التراثي والعصري

وقد تجاوزنا مرحلة السؤال عن العلاقة بين العلوم المعرفية البشرية والعلوم الحوزية إذ إننا لاحظنا كيف تطفح المصطلحات والمنهجية العصرية على الكتابات التخصصية التي كتبت بأيدي أساتذة أفذاذ ومرموقين، كانوا أول من حاول كسر الحساسية في التعامل مع الأطروحات الحديثة، والتغلب على القلق والاضطراب من التواصل معها..

فعندما نطلع ـــ وهذا زيادة على ما عددناه في السطور الفائتة[1] ـــ مكرسات الأصول للسيد الصدر نرى أن المنهج التحليلي الذي اتبعه (أرسطو العصر) في تقديم المسائل المعرفية والعقلائية بل وحتى في الأبحاث اللغوية التي أثارها في مقدمة صناعة الأصول وسواها فإنها متأثرة فيما يبدو بالأطروحات العصرية وتحرص لتستفيد إما من أسلوبها أو من بعض جوانب مضمونها، بدا ذلك واضحا في حديثه عن نظرية القرن الأكيد في دائرة بحث الوضع اللغوي،

(١) انتقل إلى الصفحة: ٢٦.

وخصائص العلة والمعلول في مربع بحث الطلب والإرادة، وما سواهما طبعا..

وأما في الفلسفة والمنطق فقد توسط بشجاعته العلمية في قلب معركة المستجدات والنظريات حتى بدا أستاذا فيما تناوله منها لا يستغني عن قراءاته لها لا الطالب الأكاديمي ولا الطالب الحوزي أيضا، وإن كنت لا أدعي أنه قد وصل إلى درجة التماهي معها الذي يعني التمثل لها والقبول الواسع بها، بل لا زال يقف عند نقطة الرد والتهذيب لها، أو الدمج والتفكيك بينها وبين العلوم الإسلامية!!

وتتطابق هذه الخطى مع مسيرة الإمام السيستاني أيضا ضمن محطات ضيقة طبعا يمكن رصدها فيما نشر من مسودات طلابه.. فالتشرب بالعلوم الإنسانية واللسانية العصرية لم يظهر على ما كتب عنه من مباحث الألفاظ في علم الأصول وكفى[1]، بل أكاد أجزم بأنه لا ينجز الكثير من كتاباته إلا وهو يشاهد تلك المنصات العلمية في أفق نفسه فيأخذ منها أو يدفع إليها لتستفيد منه..

فنراه يتعاطى مع مادة الاجتماع وهو يحلل قوانين

---

(١) وهي أبحاث منعكسة على تقريرات أبحاثه الأصولية التي صدرت باسم"الرافد".

العقلاء وتشريعاتهم، فعندما فصل بين العادات والأعراف والتقاليد اعتبرها وبالصراحة من الدراسات الخاصة بالحقل الاجتماعي[١]، وهكذا صنع في الكلام على مضمرة زرارة وتحليل المقاربات العقلائية لقاعدة الاستصحاب، وذلك من خلال تفصيله البديع بين الكشف الإدراكي والكشف الإحساسي لدى العقلاء، وما يتبع ذلك من أثر عملي وتطبيقات واسعة.

وأما على الصعيد الفلسفي فقد رفض إحدى القواعد الفلسفية الشهيرة وهي تعدد الموجود لجوهر وعرض، وصرح أنه يرتاح لرأي الفيلسوف الفرنسي ـــ روسو ـــ وبعض فلاسفة الشرق إذ يقول باتحاد مفهومي الجوهر والعرض وجودا[٢].

كما تحدث عن الدليل الرياضي المعروف بدليل حساب الاحتمالات وبين أنه قد أثر في مواضع مركزية من أبحاثه

---

(١) الرافد في علم الأصول:٢١. والحري بالإشارة هنا أن هذا التشريح يمثل نقطة التقاء بينه وبين السيد الصدر الذي طرح ذلك ضمن بحوثه الأصولية، وما أكثر نقاط الالتقاء التي توحي بالتمازج الفكري بين العلمين، ولا غرو فإنهما كان على صلة وثيقة جدا.

(٢) ن/م: ٢٠.

الأصولية كتحليل الشبهة المحصورة وغير المحصورة، والتواتر بأقسامه، ومسألة الفرق بين اليقين الذاتي والموضوعي[١].

وأنا أعتذر لعدم بيان هذه المطالب هنا؛ لأنها عناوين علمية جامدة آمل أن تتم مراجعتها في موضعها من الكتب التي نقلت أبحاث هذا الفقيه الطليعي!

وممن ينتهي إليه الذكر أيضا هو الشيخ محمد الخاقاني لأنه في قائمة المعنيين بالمزاوجة بين العلوم الإسلامية عموما والحوزية خصوصا وبين العلوم الحديثة..

تحتوي دراساته الأصولية على بحث ضاف عن الاستنباط الاستبطاني يشغل مجلدين من موسوعته عرض فيه لأطروحات عديدة من قبيل أطروحة عبد الرحمن بدوي في رسالته التصور والتصديق، وكذا مَـرّ بنظريات منها المنبه الشرطي، والمنعكس الشرطي لدى علماء النفس المحدثين، كما عاد في المجلد الخامس وقد بَحَثَ "الأمر" في مطلع بحث الأوامر لكن بالاستفادة من الأطروحات العصرية فبحث كلا من "الأمر"، و"الالتزام"، و"الضمير" عند الاجتماعيين والعقلانيين وعند المتكلمين وعلماء النفس أيضا..

---

(١) ن/ ٢٢.

كما أنه خصص دراسة للاستقراء وله فيه نتائج خاصة، وقد أبطل حساب الاحتمالات من وجهة نظر اجتهادية خاصة!

وتهمني جدا الإشارة إلى أن الحاجة متبادلة بين تحديثات العصر الحالي للعلوم اللسانية والإنسانية على وجه الخصوص، وبين تحديثات العلوم الحوزية أيضا وإن كانت في رأي بعضهم تبدو التحديثات أقل بكثير في الفكر الحوزي، لكن يبقى من الإجحاف وعدم الإنصاف للحقائق أن ننكر تقدم الأصوليين والفقهاء بالكثير من المسائل التي لا يترفع عن الأخذ بها العقل المعاصر.

ومن نافلة القول أن فلاسفة اللغة في العصر المعيش قد حاصروا بعض الأسئلة وجعلوها مثارا للبحث الجديد بينهم ومنها:

كيف يتعلم الأطفال معاني الكلمات؟

ما العلاقة بين اللفظ والمعنى؟

كيف تتغير معاني الكلمات حين تتطور اللغات؟

هل لكل كلمة معنى واحد محدد أم لها عدة معان؟[١]

وإن هذه الأسئلة بعضها يوجد منه نسخة وفق الأصل في الدراسات الأصولية وبعضها مطروح بالمعنى فقط، ولكن ضعف التسويق والتصدير والترجمة لهذه الأبحاث هو الذي يجعل تراث الفقهاء نهبا.

أرى فيـــأهم في غيرهـــم متقســـما
وأيـــديهم مـــن فيـــئهم صـــفرات؟!![٢]

ومن المؤسف أن الذين التفتوا إلى ذلك قلة، وكلها التفاتات خجولة، ومنهم الأديب السيد مصطفى جمال الدين في كتابه البحث النحوي عند الأصوليين، وسنعود لنوفي الحديث حول المساهمة اللغوية بين الدراسات الإسلامية والعصرية عند تناول اللسانيات إن شاء الله.

أنا ــ وفي نفس الاتجاه ــ أشكر بين يدي الله تعالى بعض الجهود في عصرنا كالتي يقدمها مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ومعهد المعارف الحكمية، فقد صنعا منبرا

---

(١) في فلسفة اللغة. د. محمود فهمي زيدان. ٩٥.

(٢) هذا البيت من تائية دعبل الخزاعي الشهيرة. ديوان دعبل جمع عبد الصاحب الدجيلي. ١٤١.

للنظريات الفلسفية والمعرفية الدينية في ساحة الثقافة المعاصرة، وأنا هنا في صدد الإشادة بدور تعليق الجرس وفتح الباب الذي يجب أن يحفظ لمثل هذه المبادرات الفكرية والثقافية فقط، وإلا فلا زلنا نطمح في أقلام أكثر تخصصا وأنضج تجربة ممن تطالعنا به هذه المؤسسات لتقتحم هذه الحقول بأمان وتخرج منها بأغلى الأثمان..

فمما لا يشك فيه تأثر الطفرات العلمية العصرية بالعلوم القائمة فعلا في المعاهد العلمية الدينية بما تحتفظ به من جذر تاريخي وطبقات قام بناؤها على تلك الجذور وعبر العصور، وتعميق هذه الإثارة يضعنا أمام مسارين..

أ) مسار اللسانيات

لا عجز في كتاب سيبويه، ولا المتقضب للمبرد، ولا المفصل لابن يعيش، ولا شرح الكافية لنجم الأئمة الأسترابادي، ولا المزهر للسيوطي، وأهم من ذلك كله النظريات اللغوية التي أتخمت بها الدراسات الأصولية لا سيما على يد محققي القرون الثلاثة الأخيرة في حوزتي النجف وقم، فهذه كلها ليست أفقر من أن تمد اللسانيات الحديثة عموما، والسيميائيات والنحو التوليدي خصوصا، والتي صارت تبحث لنفسها عن مساحة واسعة في ثقافتنا

المعاصرة، بل لقد تحولت بؤرة الاهتمام الفلسفي لدى بعضهم من موضوع نظرية المعرفة إلى التحليل اللغوي وتجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها لا سيما الدلالة والظواهر اللغوية، ونتيجة لذلك انقسمت الفلسفة التحليلية إلى اتجاهات ألصقها باللغة:

- الظاهراتية اللغوية بزعامة إدموند هوسرل(ت ١٩٣٨م).
- فلسفة اللغة العادية بزعامة فتغنشتاين(ت ١٩٥١م).

فأحدث ذلك إرهاصا لنشوء أو قل زيادة الاهتمام بالدراسات التداولية(أي قوانين التواصل) في اللغة، والتي لو وقفنا عند ما يمكن أن يوصف بأكمل التعاريف لها لرأيناه ممثلا للدراسات التداولية الأصولية يقول الدكتور صلاح فضل:

"أنها الفرع العلمي المتكون من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"[1].

---

(١) دراسات تداولية في أصول الفقه. سعود بن عبد الله الزدجالي. ٣٦.

ونحن لا نشك أن في الدراسات التداولية والسيميائية أطروحات وتحليلات ربما ليس لها موضع في التداوليات والسيميائيات (الأصوفقهية)، ولكن يجب التعرف على أن ما هو مقدم في هذه الدراسات الإسلامية يفوق بكثير تصورات بعض التداوليين لا أقل، فـ:"جيوفري ليتش" يرى أن التداولية تمارس الاتصال بين المتكلم والسامع[١]، بينما الأصولي يتحدث عن التداولية التي تمارس بين المتكلم والمشافهين[٢]، وبينه وبين غير المشافهين أيضا، ويدرس القدر التخاطبي في الكلام والأبعد من التخاطبي في الدلالة[٣]!بل إن ما يعرف بالقرائن الثلاث الحالية والمقالية والحكمية[٤] (مقدمات الحكمة)، التي يتداولها الأصوليون هي من أهم السمات والعلامات التي ستثري البحث السيميائي عامة والتداولية خاصة.

---

(١) ن/م.

(٢) ينبسط هذا على عامة مباحث الظهور في الدراسات الأصولية وبرز بشكل واضح في كتاب قوانين الأصول لأبي القاسم القمي، والكتب التي جاءت بعده وهي ناظرة إليه ومعنية بنقده كفرائد الأصول للمرتضى الأنصاري.

(٣) وهذه تعد من إبداعات الكاظم الخرساني طرحها ضمن الحديث في باب الإطلاق، والتي أثارت جدلا أصوليا سيميائيا ثريا يستمر إلى وقتنا هذا.

(٤) كفاية الأصول:٤/ ٣٠٨. بحاشية الطاهر آل الشيخ راضي.

هذا كله إذا ما شئنا أن نتحدث عن كوننا الزاهر وقرننا الأخير الزاخر بالعلوم والنظريات، وأما إذا رجعنا إلى النقطة السديمية المجردة فإن المعاجم والنثريات والشعريات العربية زائدا على بحوث العلماء الأوائل الذين أشرنا إليهم في بدء الحديث، تعد حاوية للكثير وتفرض نفسها لتكون نقطة بداية لكل اسم من أسماء قائمة العلوم السيميائية والدلالية، يقول الدكتور عبد الرحمن بو درع:

"... والرأي عندنا أن العلماء العرب القدماء قد قدموا مادة علمية ضخمة في ميدان علم اللغة، ولكن هذه المادة تحتاج إلى إعادة الصياغة وفقا لمبادئ اللسانيات الحديثة وشروطها في التنظير والنمذجة، ويبدو أن كثيرا من الباحثين اللسانيين العرب يبذلون جهودا منهجية لقراءة التراث اللغوي وإعادة تركيبه وفقا للتصورات اللسانية الحديثة".[1]

وفي نص آخر له يثير الشك الإيجابي حول بعض من تميزوا بالبحث في اللسانيات لدى الغرب وعلى رأسهم "تشومسكي" الذي يفترض أنه ممن بنى نظرية النحو التوليدي قال:

---

(١) في اللسانيات واللغة العربية. الدكتور عبد الرحمن بودرع. ٢٧.

"وليس بعيدا أن يكون تشومسكي قد سعى إلى الإطلاع على نظرية العامل في كتاب سيبويه وما يدور في فلكها من مفاهيم كالتقدير والحذف وغيرهما، لا يستبعد أن يكون قد اطلع على العاملية النحوية العربية قبل أن يؤسس نظريته الشهيرة (العاملية والربط) وإن لم يصرح بذلك كما يقول بعض الباحثين ولكن هذا الاحتمال يحتاج إلى دليل على كل حال"[١].

ومن اللازم التنويه على أن الربط في العاملية مسألة قد غرق الأصوليون في دراستها وقد تحدث تلامذة الآخوند وأبرزهما العراقي والكمباني[٢]، ومن وليهما عن الفرق بين الرابطية والربطية في العامل وفي الجملة بشكل فلسفي دقيق، ولم يكن حديثهم خاصا باللغة العربية بل إنه حديث يليق بالكتابات اللسانية العصرية التي تتناول فقه اللغة المقارن أو النحو المقارن..

نعم لا غنى عن الدليل في هذه الإشارة الخاصة ولكن كلنا نعرف أن النصوص المتطابقة فلسفيا بين ديكارت

---

(١) ن/م: ٢٨.

(٢) العراقي. مقالات الأصول. ج ١. ٨٦. الكمباني الأصفهاني. نهاية الدراية. ١. ١٣١. حاشية المشكيني. ١. ٨٤.

وكانط واسبيونوزا وسواهم وبين النظام، الغزالي، وابن رشد، وجلال الدين الرومي، تتجاوز بنا مرحلة الشك في اقتباس رادة الفكر الغربي من الفكر العربي والإسلامي مع ملاحظة عدم إيعازهم وتجنباتهم الواضحة للإشارة إلى المأخذ الأساس مما يعزز احتمال متابعة مفكري هذا الجيل لهذه الأدبيات المستغربة والتي لولا خشية التطرف في الوصف لقلنا أنها إمبريالية معرفية غير مسبوقة!

وبودي أن أختم بكلام الدكتور حمودة صاحب كتابي المرايا المحدبة والمرايا المقعرة يقول بعد التوقف عند ما أطلق عليه النظرية اللغوية مقارنا بينها وبين نظرية دي سوسير اللغوية والتي اعتبرها جونثان كلر في أهمية نظرية غاليليو العلمية قال ما ملخصه:

إن طفرات دي سوسير لا تتجاوز بأي حال من الأحوال النظرية العربية فالبلاغة العربية قدمت نظرية لغوية ونظرية أدبية تشهدان بعبقرية العقل العربي ولو لم يمارس الحداثيون العرب القطيعة مع التراث لكان من الممكن تطويرها إلى مدرستين لا تقلان تكاملا ونضجا عن المدارس اللغوية والأدبية الغربية التي انبهر بها البعض طوال القرن العشرين.. ويرى أن نظرية الجرجاني في النظام أو النسق

تقدم أسبابا لنظرية متكاملة فصلها في كتابيه "دلائل الاعجاز" و"أسرار البلاغة"، وأن مفهوم النسق الحداثي هو في جوهره مضمون نظرية الجرجاني.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل أفرز العقل العربي في عصر البلاغة العربية نظرية نقدية؟

يرى حمودة مثل ما يرى جابر عصفور ""أن البنية الفكرية في نهاية القرن الثالث الهجري والجدل الذي صاحب التوتر بين القديم والجديد لا شك في أنهما أفرزا نقدا أدبيا محدثا ولذلك يرى ضرورة العودة إلى التراث التي لا تعني كما يقول دعوة إلى التأمل في وضعية العقل الغربي الذي يقوم على العقل المادي والعلم المحض بالرغم من أهميته ولكنه يؤكد بأن الانبهار بالعلم والعقل الغربيين أفسد الكثير من خصوصيتنا ولذلك لا بد من أن نطور مفاهيم للتحديث تنبثق من واقع خصوصيتنا وأخيرا يقول حمودة إن الثقافة العربية لم تكن إذن مفلسة و لم يكن العقل العربي قط متخلفا كل ما حدث أننا في انبهارنا بإنجازات العقل الغربي وضعنا إنجازات البلاغة العربية أمام مرايا مقعرة صغرت من حجمها

وقللت من شأنها"".[١]

ب) مسار القانون

تأثرت نظرات بعض مدارس القانون بنظريات علم أصول الفقه لا سيما في تحليل الفكر العقلائي والذائقة العرفية التي تتحكم في السلوك العام، ورأيي في بعضها أنها أبحاث تستطيع أن تكون فاصلة في مجالي القانون وعلم الاجتماع، وأذكر على وجه المثال: بحث التفريق بين الأصل والأمارة العقلائيين وأعود هنا لأذكّر بالإمام السيستاني مرة أخرى والذي حاول تفصيل ذلك ضمن بحثه في قاعدة اليد الفقهية[٢]، فهو ممن أثبت بأنه ليس من شأن العقلاء أن يبقوا مكتوفي الأيدي تجاه بعض القضايا التي يجهلونها؛ ولذا يبادرون بسليقتهم النظامية إلى تخريج أصل مقبول لدى العموم لسد فراغ ما يجهلونه من موضوعات! ولا شك أن لتحقيق هذه النزعة العقلائية (سد الفراغ النظامي) وإبرازها تأثيرا كبيرا على تحديد بعض النظرات القانونية..

---

(١) نقلا عن كتاب: النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة: إبراهيم الحيدري: ٤٨٢-٤٨٣.

(٢) قاعدة اليد ضمن كتاب "القواعد الفقهية" سجلت فيه أبحاث الإمام السيستاني حفظه الله بقلم السيد محمد علي الرباني.

ولعل من الفاتحين في هذا المجال الشيخ الحسين كاشف الغطاء في شرح المجلة، وهذا هو أحد رموز القلعة العلمية الدينية بالنجف الأشرف والتي تعد مرجعية متفتحة في هذا العصر، ثم إن من أرق وأرقى أنواع المجاريات لهذه الأطروحات القانونية العصرية ما أفاده يراع الأستاذ السيد الحائري في دراساته الضخمة "فقه العقود"! ويمكنك أن تلاحظ بوضوح البحث الاجتماعي تحت مسمى السيرة العقلائية في مجال العقود، وكذا المقايسة المتكررة بين الفقه الغربي والفقه الإسلامي في العقود وتعقباته لمواضع الخلط والإخفاق التي وقع فيها السنهوري في كتابه المعجم الوسيط[1].

وهنا استفهام ودي وحميمي وهو: أننا لا ندرك بعد السر في موقف بعض الأعلام الذين أتصلنا ببعضهم أو قرأنا لعضهم الآخر، ونعلم أنهم اطلعوا وتوسعوا في العلوم والأطروحات العصرية على خط اللسانيات والإنسانيات والفلسفيات لدى المدارس العصرية الأخرى ولكنهم إما لم يتحدثوا بها أو اكتفوا ببعض الوقفات في مواضع يرونها

(١) فقه العقود. السيد كاظم الحائري حفظه الله في مجلدين والكثير من تلك الأبحاث التناظرية جاءت في المجلد الأول على الخصوص.

مناسبة من أبحاثهم في الأصول والفقه مثلا!!

والحسابات السريعة تشير إلى أن هذا السلوك العلمي الضامر يتسبب في خسارة كبرى بل ويساعد على فتح باب الهجوم الثقافي من كل صوب وحدب على المسورات العلمية الدينية(النجف/قم مثلا) ورميها بالانقطاع مع ذاتها..

فالنهج الذي اتخذه الطباطبائي والصدر والمطهري وعدة أخرى من ورائهم كان هو الأمثل، والأنسب بالإشادة.. لكن علينا أن لا ننسى بأن بعضهم كان يرى في طرح هذه الأفكار وتداولها على منبر البحث الخارج وحسب مواضعها المناسبة هو الأجدر، ولكلٍ تصوره!

الإبداع فوق الإنتماءات

إن السجل التراثي للأبحاث الأصولية والفقهية واللغوية التي تتصل بالعقل المعاصر لا تنتهي عند هذا العد والسرد من الأمثلة التي أثرناها وذكرناها، فهي لا تزال بالغةً في الكثرة ولا يستوعبها هذا الحوار، ولكنني أريد أن أتمسك مرة أخرى بالقول السابق: إن الحاجة متبادلة بين تحديثات العصر الحالي للعلوم اللسانية والإنسانية وبين تحديثات العلوم الحوزية والتراثية مما يعني أن الحكمة، والمعلومة، والنظرية لم

يجمعها الله عز وجل لدى أمة دون أخرى؛ ولذا فالمثقف المنصف لا ينبغي أن يستقل أو يستهين بالمخرجات الألسنية والإنسانية في السلك العلمي الديني، والطالب الحوزي المنصف أيضا لا يتعالى على ضرورة الإشراف والمتابعة لما هو مطروح على طاولة العرض الغربي والشرقي في عموم المجالات..

ولعل هذه الدعوى قد وصلت درجة من الوعي والبداهة يُقِرّ لها حتى من يُصنَفون عادة على ذوي النزعة التراثية أو يتميزون بالتحفظ على بعض المعارف الإسلامية كالعرفان فضلا عن مشاريع الانفتاح!! يقول السيد مرتضى الشيرازي في معرض بيانه لما أعمل في الحوزة أو أهمل من الألسنيات والنفس والاجتماع اللساني:

""ويمكن التمثيل لما ترك وأهمل ببعض مسائل عمل اللسانيات أو (الألسنية) المستحدث و(الهرمنيو طيقا) و(نسبية المعرفة) كالقراءات المفتوحة للنص، وعلاقة اللغة والفكر، وآلية اللغة الميكانيكية النفسية، ووظيفة الصوتيات وتنظيمها، وتأثير أمثال الحركات والإيماءات وإيحاءات الملابس وغيرها.

وكذلك مسألة (علم النفس اللساني) و(علم اجتماع اللسانيات)، و(علم الذكاء الاصطناعي)، و(علوم الأعصاب)، وشبهها.

لكن المنصف يجد أنها بين ما قد بحث في علم الأصول بعناوين أخرى كـ(النص، والظاهر، والمحكم والمتشابه، والمجمل والمبين)، وكـ(القرائن المقالية، والمقامية)، وكـ(الظاهر والباطن)، وكـ(الدلالة التصورية والتصديقية)، و(الإرادة الجدية والاستعمالية)، و(دلالة الاقتضاء والايماء والاشارة)، وغيرها.

كما أن قسما من تلك البحوث قد بحثت في علم(الكلام) أو (الفلسفة) أو (المنطق).

وقسم منها مما لا يرتبط بوجه بعلوم الأصول لا من قريب ولا من بعيد نعم بعض ما طرحوه جدير بالبحث والدراسة ومفيد في حقله وبابه، كما أن بعضه جدير بأن تكتب حوله رسائل مستقلة نقدا أو تعديلا أو تطويرا."""[1].

ومن سوء التقدير في الرأي أن يقيمنا من يسمعنا ثم

(١) المبادئ التصورية والتصديقية للفقه والأصول السيد مرتضى الحسيني الشيرازي. ٦٠- ٦١.

يقول إن كل هذا السرد الغني بالشواهد والمقارنات والتساؤلات، هو نزعة دفاعية مجنونة أو دعاوى لتدعيم مثالية العقل الإسلامي، ولكن ما ننتظره حقا من المتابع لنا أن يبسط نظره على كل تقاسيم الحوار إذ إننا لم نحد عن مسؤولية الاعتراف بالقصور والتقصير معا. بل إننا نرفع سقف الاعتراف هنا إلى القول بأن تبلور بعض النظريات والأفكار الفلسفية الإسلامية يمثلها بعض من بعض النظريات الغربية، فمن يقرأ الأولى دون الثانية لم يجني ثمرة ما زرعه الأولون!

الحوزة بين حلم المؤسسة وواقع الرعاية

س/ كيف تطبق عنوان المؤسسة الدينية على الحوزة العلمية ومشاريعها؟

ج / إن الحديث عن مؤسسة دينية في العالم الشيعي حديث متفائل جدا! فكلمة المؤسسة مفردة حديثة أقل ما يشير إليه معناها هو "تنظيم يرمي إلى الإنتاج"[1]، والحوزة لا تقترب من هذا المعنى كثيرا؛ إذ هي ـــ وحتى الآن ـــ لم تتمكن بسبب المعوقات الطبيعية والسياسية وغيرها من إحكام قبضتها لا على منابر الجمع والجماعة والمجموعات الحسينية ولا على غيرها من قنوات الإنتاج الفكري والثقافي والتربوي المتصل بالإسلام كالدوريات الفكرية والإسلامية بالرغم من أن بعضها لا يزال يصدر من قلب الحوزة العلمية، ولكنها في المعظم مشاريع جهوية أو شخصية..

وعلى صعيد جانبي علينا أن نتذكر بأن التعريف بالمؤسسة الدينية ينساق في ذهنية الثقافة العامة إلى

---

(١) المعجم الوسيط: ١٧. مجمع اللغة العربية.

المؤسسات الدينية الرسمية كـــ(الأزهر والزيتونة والمؤسسة الدينية بالسعودية)، الشيء الذي لا يجري مثله لا في قم ولا في النجف الأشرف ولا في سائر نقاط العالم الإسلامي!! ولكن قد يتوسع بعضهم في الاصطلاح ويجعل لهذا التعبير تفصيلا يفصل بين المؤسسة ذات التنظيم الرسمي والواسع، وما هو دونها؛ وعلى أساس من هذا تم اختراع المصطلح الثنائي: "مؤسسة المتن/ مؤسسة الهامش"[1]، فالمراكز الدينية التي تمثل مذهبا أو تيارا إسلاميا غير منظم أو شبه منظم هي من مؤسسات الهامش!

بلى، هناك مبادرات دخلت حيز التنفيذ لإقامة مؤسسة تعليمية مركزية أو مؤسسات تعليمية فرعية داخل حرم النجف أو قم، إلا أن هذه المساعي ليست تحكي المؤسسة التعليمية بمفهومها الباذخ، فالمؤسسة التعليمية فيما يقصدون هي خارطة هندسية تجمع قاعات المحاضرات، ومبنى الإدارة، والمكتبة المجدولة والمنظمة، والمعامل والمساكن المهيأة، ومبنى اتحاد الطلبة الذي يقام فيه المناسبات الاجتماعية، وفروع في أهم الحواضر والمحافظات، وتنمية المعارف الجديدة، ذات

(١) المؤسسات الدينية. كتاب المسبار ٣٠. مركز المسبار للدراسات والبحوث.

الصلة، والخدمة العامة[١].

وما أفيد لا يوجد في الحوزة، وما يوجد منه فهو لا يزال أقل من المستوى المرغوب فيه.

وعلى أيٍ من التصورات فإن ثوب المؤسسة لا يلبسه إلا الهيكل الكامل الذي رسمه المفكر الإسلامي الأكبر السيد محمد باقر الصدر في رسالته:"المرجعية الصالحة والمرجعية الموضوعية"[٢]، ولسنا ننكر غلبة هذا المصطلح اليوم حتى في أوساطنا لكنه مبني على وجه التشبيه والمقارنة بين الأشياء لا أكثر.

وأنت قد ترى بعض المرجعيات على الخصوص تتمتع بدور البناء والعطاء وتبلغ في ذلك غاية مجهودها كمرجعية السيد البروجردي والخوئي سابقا، والسيستاني ومكارم شيرازي والهاشمي الشاهرودي وغيرهم من مرجعيات الحين والوقت المعظمين، ولكن المسمى الأنسب لهذه النهضات الشخصية هو اسم"الرعاية"، فالرعاية هي الحفظ والمراقبة والملاحظة[٣]، وهي مجرد نهضة شخصية ترتبط بشخص

---

(١) الموسوعة العربية العالمية: ٨ / ١٤٧-١٤٨.

(٢) مباحث الأصول. السيد الحائري. ج١. ٨١- ٩٠.

(٣) المعجم الوسيط. ٣٥٦.

المرجع وتطلعاته وقدراته، وهذا ما يضع فاصلا بينها وبين المؤسسة على مستوى المثال والفكرة!

وإن صور الرعاية قد تبلغ شأوا بعيدا في تنفذها وتعدد نقاطها الجغرافية فتحاكي ظاهر المؤسسة وإن كانت منفصلة عنها واقعا وموقعا..

ويهمنا أن نعرف بأن الإشراف والمتابعة والمباركة للمشاريع والإنجازات ذات الصلة بالدين أو المجتمع الديني إنما تتحملها المرجعية الدينية من منطلق سياسي اجتماعي؛ لذا هي تبدو محاولة لقهر الظروف وعدم الاستسلام..

هذا وإن المنطلق الشرعي غير منعدم أيضا فعادة ما تقوم هذه الرعاية على النظرة إلى تلك المشاريع الجزئية والبسيطة بعين الأمانة من جهةٍ، أي عندما ترى في هذه الموارد تطبيقا لقوله تقدس وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٨]، وأما من جهةٍ تابعة فإن هذه الأنشطة المتعارفة تبرز في عين المرجعية، بعد الاطمئنان والتمحيص ـــ موردا لقاعدة الحسبة وأنها مما يقطع برضا المعصوم بفعله أو يُقطع بعدم رضاه بتركه مثلا..

بيد أن النهضة "الرعائية" تتراوح دائما بين حالتي المد والجزر، لسبب وآخر، متصل بالمرجعية أو منفصل عنها.

طالب العلم بين كفالتي الدين والمجتمع

س/ ما هو وضع طالب العلم اقتصاديا واجتماعيا؟

ج/ لقد أجبنا على هذا في مطويات الأسئلة السابقة، وهنا أريد أن أستجيب مرة أخرى للتعمق في فحوى الفكرة، فأقول:

إن طلب العلم وطالب العلم من الأمور التي تهتم السياسة الولوية بتعزيزها ولا ترضى بانحسارها؛ لذا فمثل طلب العلم مثل الحج إلى بيت الله لو لم يكن هناك من يستطيع الحج لتحملت السياسة الوَلوية الأمر به وتجهيز من يحج إلى مكة على نفقة بيت مال المسلمين! وهكذا يجب تجهيز من يؤم الحوزة العلمية إذا لم يكن هناك من يستطع الوصول إليها بنفسه، وينبغي تعزيز القاصدين باختيارهم لا سيما من ثبت نجاحهم وصفاؤهم؛ لأن ذلك من مؤشرات المستقبل الصالح، والعديد من الفقهاء صرح في باب الزكاة بجعل طالب العلم وما يحتاجه لتأمين دراسته وأعماله العلمية

من الكتب موردا من مواردها..[1]

والتنبيه الذي يفرض نفسه هنا هو:

أننا لا نعدم المغالاة في الإعراض عن الكسب وتدبير أمور المعاش بالنسبة لشريحة من طلبة العلم من قبيل الذين يضعون أيديهم على شهادات أكاديمية أو أي سبيل آخر من شأنه أن يفتح لهم أوسع أبواب فرص الكسب، والمعنيون أكثر بهذه الملاحظة هم الطلبة المكتفون دراسيا الذين صرفوا النظر كاملا عن العود والإقامة بالأوساط العلمية المغلقة على الدراسة فقط كالنجف وقم، فالغالب على هؤلاء المحترمين أنهم لا يزاولون أزيد من الاشتغالات المترسمة كإقامة الجماعة، وفتح الحلقات التثقيفية، والمساهمات الإرشادية التي لا تتجاوز المناسبات المألوفة..

وقد طالعنا في السِيَر ورأينا أن العلماء الذين اشتغلوا بتدبير أمور معاشهم ـــ مع مواتاة الظروف ـــ لا يقلون بركة في العلم والإنتاج عن غيرهم وربما تفوق بعضهم من هؤلاء على بعضهم من أولئك!!

وممن عظمت بركة أناملهم وخلفوا تركة علمية

---

(١) منهاج الصالحين: ١ / ٣٢٦.

وفكرية مرموقة، دون سند مادي إلا ما كسبته أيديهم الإمام السيد محسن الأمين[١]، والسيد هاشم معروف الحسني[٢]، والشيخ محمد جواد مغنية[٣].

يقول نصير الدين الطوسي (أكرم الله مثواه): وكانوا في الزمان الأول يتعلمون الحرفة ثم يتعلمون العلم..."[٤]. ويبقى الاستثناء واسعا وممن يستثنى من ذلك حقا أؤلئك الذين يخضعون أنفسهم لنظام التفريغ التام، أو يحتاجون للرحلات العلمية المكثفة والمتتابعة[٥] فيستهدفون بتمام وقتهم مشروعات علمية وفكرية كبرى، ومنهم العلماء الموظفون بتربية الطلاب فإنها ليست أقل من وظيفة أستاذ الجامعة..

---

(١) معادن الجواهر ونزهة النواظر:٤/١٤٠.

(٢) اشتغل بالقضاء وأنجز العديد من دراساته بالرغم من هموم هذا المنصب المؤرق.

(٣) تجارب محمد جواد مغنية. ١١٧-١٢٣. تحدث عن دقته مع المادة وغلقه لكثير من أبواب العطاء مع الناس، وأن الله عز وجل عوضه عن ذلك فوق ما يأمل.

(٤) آداب المتعلمين. نصير الدين الطوسي. ١٨.

(٥) الرحلات العلمية والاستطلاعية مهمة جدا في التنمية الفكرية للعلماء ومن العلماء الرحالة الشهيد الثاني(راجع إلى مقدمة الشيخ مهدي الآصفي على شرح اللمعة الدمشقية)، والشيخ عبد الحسين الأميني، ومجموعة من أقطاب التحقيق والتدقيق، ولكنها تراجعت في وقتنا الراهن لأنها تفتقد البرامج والإعداد المناسب لتطورات هذا العصر.

وأما اجتماعيا فإن إدارة المصالح الدينية في المجتمع تتوقف على تمهيدات يشارك فيها المعنيون من وجهاء المجتمع ورؤسائه، وهؤلاء تلقى عليهم مسؤولية المشاركة في انتخاب العالم المناسب ورفعه إلى الدرجة التي تمكّنه من تأدية المهام الرئيسة التي عرّفتكم على أربع منها في معالجة سؤال سابق..

وينبغي التوضيح بأن الارتفاع برجل الدين الموثوق والمأمون وإن كان هو مبدأً قرآنيا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة:١١]، ولكن الآية متراحة (منصرفة) عن العالم الذي لا يُنتفع به، فهي معنية فقط بذاك الذي يكون رفعه فوق مستوى الهامات رفعا للهوية الدينية، ممن أصبح لسانه وعينه ويده أعضاء للكيان الديني لا يألو جهدا ولا يدخر دونهم وسعا.

وربما هناك من يرى أن فرضية الانصراف هذه تحميل وتأويل فج بلى لا نشك في أولوية العلماء القوامين والمتفاعلين بالبذل العلمي والمعرفي على من دونهم علما ومعرفة.

سعة المثقف وعمق المختص

س/ ما الفرق بين أن تكون متخصصا في علم الدين وأن تكون مثقفا في مجال الدين، ونرى في المجتمع من ليس طالب علم ولكن يتخطى طالب العلم بمراتب؟

ج/ كلمة التخصص ليست محصورة في معنى الاستيعاب النظري لمادة هذا العلم أو ذاك، ولكنها ــ في المعنى المتواري من هذه الكلمة ــ تشير إلى ضرورة المعايشة الطويلة والملاصقة المستمرة للمسائل العلمية ذات الموضوع المحدد، وهذا المفهوم المبسط هو الذي يستوحى من تعاطي الجميع، فهنالك نرى الطبيب لا يكتفي بالعلامات الظاهرة على الطفل المتوعك قبل أن يسمع للأم الملاصقة والمعايشة للولد، وهنالك الخبير النفساني أيضا والذي يفضل أن يعقد الجلسة الخاصة بذوي المريض الملاصقين له ويستمع للمتعايشين معه باستمرار قبل الأخذ بأي نتيجة يتوصل إليها من خلال جلساته المباشرة مع صاحب المشكلة النفسية،

وهنا أستطيع القول أن كل علم من العلوم الأصيلة التي تقلبت في القرون له مرتبتان من التخصص وسأضطر لسك مصطلحات خاصة أرجو أن تساعدنا على التلقي للفكرة بشكل ملموم:-

- التخصص الديواني أي مأخوذ من دواوين العلماء وكتب الفن، وهذا التخصص يستوعب ما في هذه المجاميع من نظريات ومصطلحات وتسلسل في المسائل والأفكار..

- التخصص الميداني مما يستطيع أن يلمسه العالم بالاحتكاك الميداني ـــ بعد الفراغ من التخصص الأول ـــ لمسا حقيقيا تنطفي معه الكثير من الأوهام التي تنشأ من خلال العب والامتلاء النظري مما في الكتب.

فقواعد العلم ونظرياته الثابتة تمثل الديوان الذي يمكن أن يجمع ويقرأ.. ولكن جمهور العلم من الأعلام ومؤلفيه وأساتذته ـــ عبر القرون ـــ يمثلون الميدان والاحتكاك بهم والتأمل في طرائقهم والتلمس لأنفاسهم المختلفة ضروري لمرحلة الاجتياز والمرور دون عثرات، وهذا ما يحتم على السالكين لطريق التخصص الممارسة الطويلة والتطواف المنظم بكتب ومدارس هذا العلم أو ذاك، زائدا على المناقشات الحية في قاعات وساعات الدراسة والتدريس..

وأذكر لكم هنا كلمة أستاذنا السيد الخرازي حفظه الله عندما عرضت بعض دروسي المكتوبة عليه فقد أشاد بفكرة الكتابة للدروس، وقال: أنا أرى أن يكتب الدرس مرتين قبل وبعد الإلقاء على الطلاب! فالمناقشة في قاعة الدرس تجبر الذهن على عملية طرح وجمع منتجة[١].

وهذا التوضيح يعد هو الخلفية التي بُـــني عليها واحد من أقدم تعاريف "الأعلم" فقهيا فقد كانوا يتداولون في وصفه أنه: "الأكثر اطلاعا والأشد ممارسة وتدريسا.."[٢] فما هذا التعبير إلا إشارة إلى الجانب الميداني لعلم الفقه ومقدماته خاصة، وبهذه النقطة نصل إلى الحد الفاصل بين العالم المتخصص ومن هو دونه ممن يُدعون بأنصاف العلماء..

تحديد الثقافة في اللا تحديد

وأما المثقف بثقافة العلوم الدينية فهو الذي يلي مرحلتي التخصص السابقتين، وليس للمثقف ضابطة محددة بحسب

---

(١) يأتي متصلا بهذا الكلام تدليل وتقريب آخر عن أمثلة وأسماء حية في الذاكرة العلمية أنظر الصحفة: ١٢٥-١٢٦.

(٢) راجع حصيلة تعاريف الأعلام للأعلمية في: الأصول. السيد محمد الشيرازي. ٢ / ٣٢٤.

المفهوم العام، بل هو يختلف باختلاف العصر وتطور حركة العلم عبر الزمن، ولذا فأي تعريف نقرؤه هنا أو في مكان آخر فهو تعريف منسوج بمغرزي السمة والسمعة التي تتشكل مع تحركه!

الثقافة التعليمية الرافدة

في الأجيال السابقة على مرحلتنا كان أوضح مستوى للمثقف في العلوم والآثار الإسلامية هو أن يقرأ ويكتب ويطلع على مجمل السيرة، ويتحصل على إجابة الأسئلة الشائعة في أبواب العقيدة، ومسائل الفريضة، زائدا على حفظ النصوص والأشعار الأدبية الخالدة مما يتيح له أن يكون معلما أو واعظا يُزيّن المجالس بمعلوماته ويُعقّب ويصحح على ما يحسبه جهلا محضا، وربما يُصطَحبون في قوافل الحج كمساعدين على الارشاد الديني، كما يوكل لهم افتتاح المجالس الحسينية بقراءة شيء من كتب المقاتل، وما سوى ذلك، فهي ثقافةُ رفدٍ تعليمي وليست ثقافة علمية تبتني على دراسة القواعد والنظريات ولا الإلمام بالأضداد والمتناقضات الفكرية.

ولكن في القرن الفائت ــ القرن العشرين ــ تغيرت

حدود الكثير من الأشياء ومن بينها حدود الثقافة نفسها، فقد اعتلى المثقف العربي والإسلامي مرتبة جديدة مختلفة عن ما قبل طه حسين، وعباس العقاد، فهذا ثنائي لم يسبق و لم يلحق حتى الآن فيما يبدو لناظري شخصيا!!

فالواضح في شأن كلٍ من هذين الوجهين هو المحاذاة بين مختلف الفنون في الكتابة فأصبح لدينا إسلاميات، وتاريخيات، وأدبيات، وفلسفيات طه حسين يجاريها إسلاميات، وتاريخيات، وأدبيات، وفلسفيات العقاد.. و لم يترك غيرهما صورة تجمع هذه القوائم الأربع للثقافة العامة، لا سيد قطب، ولا مالك بن نبي، ولا جرجي زيدان، ولا حتى الأمير شكيب أرسلان الذي أكثر وأجاد لكن في محوطات صغيرة كالأدب والتاريخ والدعوة..

بلى فقد قاربهما أو يكاد الشيخ مغنية من الشيعة فهو من الكتّاب القلائل الذين تتشكل من كتب الواحد منهم مكتبة صغيرة في العلم والفلسفة والتاريخ والإسلاميات وغيرها عدا عن كتابة الرواية والنظم!

واللافت في الموضوع أنه قد تحولت الثقافة مع جهود هاتين القامتين وجهود من عاصرهما إلى ما هو أعم من

المعرفة اللازمة وغير اللازمة، والممنوعة وغير الممنوعة؛ لأن الثقافة في ذلك الجيل كانت عبارة عن كل ما طوى طريقه معرفيا في المجتمع البشري، وليست ثقافة على الهوية!

والحق أنهما لم يسجلا سبقا يذكر في الثقافة الاقتحامية الجدلية ـــ التي سنعرّف بها قريبا ـــ فبقيت ثقافتهما وصفية في الأكثر الأغلب لم تضرب بمطارق النقد قلب العلوم والمسلمات الإسلامية فلم يؤديا دور علي شريعتي، ولا الوردي، ولا من سواهما في تناول المسائل التشريعية والأخلاقية الجزئية، وهذا كله في الطابع العام، وإن كنتَ ستقف لهما على همسات وتحليلات خاصة في بعض الثنايا من قبيل النتائج غير المسبوقة لطه حسين في كتيبه الشعر الجاهلي مثلا، وأيضا علينا أن نستثني الكتابة في التاريخ ورموزه فهذا مجال عرف بأن لكلِ قلم فيه قبلة خاصة يتوجه إليها بقرائه وليس هذا خاصا بما توصل إليه عميد الأدب المصري ومعاصره حتى أصبح من الصعب اليوم أن يعد التاريخ في مجالات الإبداع؛ لصعوبة الخروج بأسس تنتهي بالاتفاق المنهجي أو بتكون مدارس، إنما سنغرق في خلافات وتشخيصات تعجل الرأي قبال الرأي وبشكل مفتوح إلى الآخر، ولن تكون مدرسة في منافسة مدرسة أخرى!!

التعريف الذي يفرضه الواقع للمثقف

وأما اليوم فالثقافة قد اصطبغت بالصبغة الجدلية (الاقتحامية) فصار اسم المثقف عنوانا لمن يجادل ويقتحم في أكثر من مجال[١]، فصار يصعب على بعضهم أن يميز بين المثقف والمتخصص، لتعادلهما في النشاط الجدلي على مستوى الصوت!!

ولعلّي أوفق في استعارة مثال من الواقع الإعلامي، فهناك وعندما يجلس الإعلامي لمحاورة ذوي الشأن السياسي أو الاقتصادي أو الديني والعقائدي، نراه يحاور ويجادل بطلاقة، ويحسن التداخل مع ضيف البرنامج، وليس هذا فحسب بل ربما استطاع أن يحول البرنامج من نقطة حوار إلى نقطة تقاطع فيضيق زاوية الكلام على المختص؛ وذلك نتيجة كونه متخما بقراءة الملفات ومتابعة الوضع الذي يناقش فيه ضيفه، ولكن مهما بلغت قدرته، فلا أحد يمنح المقدم للبرنامج شهادة التخرج ووسام التخصص!!

وهكذا هي منزلة المثقف الديني اليوم من العلماء المختصين.

---

(١) وهذا أشبه بالتعريف التعيني وهو مصطلح يعني أن اللسان العام ومع شدة وطول استعماله لهذه المفردة حصر الكلمة في اتجاه معين غير المعنى الابتدائي للكلمة.

والواقع المعيش اليوم هو الزاوية الأقرب التي إذا نظرنا منها إلى المثقف فلن نختلف في تشخيص ملامحه ومن ثم تعريفه بأنه: "الفهم الذي يمتلك طرق التواصل الجدلي مع عدة فنون وعلوم.." وإلا فقد أرهق البحث عن تعريف له كافة المفكرين والنقاد، ومما تجتره ذاكرتي البعيدة أن الدكتور الرميحي أحصى للمثقف ١٥٠ تعريفا!! وهذا كله نتيجة عدم تحديدهم للزاوية الأنسب بعامة المثقفين!

هل نتصور التفوق في المثقف على طالب العلم؟

كما أنك تبدو محقا في زعمك انعدام وجه المقارنة بين بعض من بعض من المثقفين بالثقافة الدينية، وبعض من بعض من طلبة العلوم الدينية، من حيث يبدو بعض المثقفين متفوقا على قسم من طلبة العلوم الدينية..

وذلك لأن عدد طلبة العلوم الذين لم يصلوا إلى مرحلة التخصص في مرتبته الديوانية دعك عن التخصص الذي يدمج بين مرتبتيه الديوانية والميدانية ليس ضئيلا؛ ولذا فإن الكثير ممن تشرفوا بالحوزة لا يزالون في عداد المثقفين ثقافة دينية عالية، وإن كان سمي أحدهم رجل دين فهو من باب التشرف أو لأجل دخوله في سلك الطلبة وانتسابه العملي

للحوزة الدينية..

ولكن أعنّي هذه المرة لأكشف لك عن شيء مهم في صدد هذه الظاهرة، وهو: أن الكثير ممن نسميهم بالمثقفين ثقافة دينية هم طلبة علوم دينية غير رسميين، وقد لا يدور ذلك على بال أحد منهم!!

وأنا هنا أعني ما أقول..

فهناك اليوم شريحة ذات أغلبية ملحوظة تفوق عدد المسجلين رسميا فتحت بابا جديدا للتعلم الحوزي ربما جاز لنا تسميته بـــ(التعلم الاستراقي)[1] وبهذا تكون انتسبت إلى الجامعات الحوزية عن بعد، وبشكل غير معلن، وإن قسما منهم يستمع بنهم دروسَ المنطق والأصول والفلسفة والفقه سرا أو جهرا وعبر التسجيلات المنتشرة، وهم ينجزون ذلك بشكل راتب ويكتبون دروسهم، ويتابعون شروح الكتب التي يدرسونها باجتهاد وانتظام يكلفهم الكثير من الوقت والمعنوية، حتى بدا على بعضهم العزلة الممنهجة، ولو اطلعت على المكتبة الشخصية لأحدهم لرأيت أنها متوافرة على كل

---

(١) التسمية مستخرجة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ...﴾ [سورة الحجر:١٨].

المقررات والشروح الحوزية، والتي تمتلئ هوامش صفحاتها بتطريزاته وتعليقاته مما أفاده من التسجيلات..

فبعضهم قد أمضى سنين في متابعة الدرس وفق هذه الطريقة، ولكنه لا يزال يعتبر النسبة للحوزة شيئا غير مريح بالنسبة له!

ومن جانب آخر لا تراه يوما قد تصدى لشبهة أهكت الدين والتدين، إلا اللهم ما يظهر بصوت يشبه أنين المساكين المتعففين الذين يخشون افتضاح فقرهم!!

ويزيد الأمر سوء أن بعضهم لم يفتر يوما عن التصدي للطلبة وملء الأجواء بجدل المشاغبة والمشاغلة لطلبة العلوم الدينية فيما يشبه المراء!!!

وإن هذه المفارقة العمياء تترك في نفسي شعورا بالاستفهام القلق جدا جدا..

لكن لا يفوتنا ضرورة الاستثناء (والاستثناء الواسع طبعا).. وأن نخص بالنظرة الكريمة كوكبة من الشباب والمثقفين الذين امتشقوا القلم، وشقوا طريق الصفحات التي صار يتلألأ على سطحها الاجتهاد والإنصاف للحقائق والحس بالمسؤولية..

والأحرى بنظرة العرفان أولئك الأكاديميون الذين صدّروا الفكر الإسلامي في علب رجالية!! فقامت دراساتهم على إعادة صياغة أعيان من الرجال الماضين الذين حركوا تاريخ العلم البشري والديني، حتى أصبح على رفوف مكتبتنا الآن شيء من الدراسات المتموضعة عند مثل الخواجة نصير الدين الطوسي، والملا صدرا في الكلام والفلسفة، ومثل الطوسي، والعلامة، والمرتضى الأنصاري في الفقه، والإمام شرف الدين والحسين كاشف الغطاء في المصلحين وغيرهم من نجوم سماء المعقول والمنقول والمقول والمقبول الإسلامي، فسخر هؤلاء الشباب والأساتذة الأكاديميون بريد القلم واللسان في إرسال نتاجات الأعلام المجددين وشخصياتهم إلى أقصى نقطة في عالم الثقافة بما خصصوه من دراسات في شأن تحليل سماتهم وعلاماتهم الفكرية المتنوعة بتنوع العلوم والمعارف، وكذا استقراء انجازاتهم الاجتماعية و مواقفهم السياسية، ورئاستهم الدينية، كما اهتموا بإعادة عرض عناوين كبرى من المباحث والمسائل المحورية في الفلسفة والكلام والتشريع فألبسوها اللغة والأسلوب الشائق ووضعوها على طاولة الثقافة العصرية الناقدة بطبعها، وهذه هي الخدمة للدين والتراث

والعلم التي يتوق إليها كل شريف.

فأنا أحترم هذا النفس الثقافي وأعتد بهاتيك الجهود، ويحضرني الآن كتابات الدكتور غلام حسين الديناني، وبعض من إنتاجات المركز العلمي العراقي، هذا بالإضافة إلى قائمة الإعجاب السابقة[1]..

لكن وكما قد لاح مني فيما تقدم أننا لا نزال في الميل الأول من المشوار، وأن النقص والعوز هو سمتنا حتى الآن، فلا زلنا نطمح في أقلام أكثر تخصصا وأنضج تجربة لتقتحم هذه الحقول، وبكلمة أكثر تحديدا فإننا لم نعدم العمل والنشاط، ولا الأيدي الفاعلة التي تستحق التقبيل حقا، ولكنني أُشبه إنجازاتنا وإنجازات الآخرين ـــ وفي حدود هذا الشكل الثقافي فقط ـــ بدولتين جارتين تعتمد إحداهما الصناعة الآلية فيما تكتفي الأخرى بالصناعة اليدوية، إذ لا وجه مقارنة أصلا بين سرعة وغزارة الإنتاج في الدولتين!!!

---

(١) راجع إلى صفحة:٥٩.

القطيعة بين النخبتين

س/ نريد تسليط الضوء أكثر على العلاقة بين موقفي المثقف والفقيه؟

ج/ المقابلة بين المثقف والفقيه في إطار العلاقة مقابلة مجازية ــ بحسب فهمي المستقل ــ والمقابلة الحقيقية هي بين النص والواقع، وهذه الظاهرة كانت ضمن الأسس العلمانية التي سعت لتثوير كل شيء ضد الدين، فأرادت للواقع أن يثور على النص، والأجمل بالإشارة هنا أن العلمانية من حيث هي منصة فكرية واجهت منصة دينية واحدة في الغرب.. ولكنها حين الاصطدام بالدين الإسلامي فوجئت بمنصتين دينيتين في قبال منصة علمانية واحدة.

المنصة الأولى: هي منصة الدين والفقه والعقيدة النصية الآحادية التي تسكن إلى الإجماعات، والطبقات... والكثير يتوقع أن هذه الحالة تمثل ظاهرة أصيلة لدى العلماء، ولكني أتحفظ على هذا النعت، ولن نستعجل التفسير الصحيح لهذه

الحالة الآن، ولكن سوف أذكره لكم في مرحلة قادمة إن شاء الله.

والمنصة الثانية: هي للدين والفقه والعقيدة الثنائية التي تعتمد على ثنائية النص والواقع وتبحث عن السبيل للتمازج بينهما!

وقد أقيمت المنصتان في عالم الكهنوت الغربي أيضا، ولكن تحطمت قوائمهما أمام العقلانية والواقعية العلمانية، وأصبحت التوجيهات الدينية مجرد فبركات ساحرة لكونها لم تنبع من النص ذاته، وإنما جاءت ونضدت على شكل تفسيرات لاحقة للنص بعد مسافة طويلة من القرون.

في حين أن منصة الثنائية في المنطق الإسلامي استطاعت أن تثبت كفاءتها للمقاومة ضد القطيعة في كثير من الأحيان، وهذا التميز على المسيحية بل على الأديان الأخرى ينشأ من علامتين فارقتين:

أ) وفرة وغزارة النص التراثي في الدين الإسلامي حتى مَثّلَ ذلك ذخيرة للتفسير والمقاربة بين الدين والواقع، لا سيما وأن النصوصَ تضمن للكثير من الموضوعات وجوها متعددة مما تمنحها مرونة غير معهودة.

ب) الاحتراف العقلي في التأصيل والمتمثل في علمي الكلام والأصول.

و بطبيعة الحال لم تكن مواجهة هذين العنصرين بالأمر الهين بالنسبة للعلمانية أو الأطروحة غير الدينية عموما، لذا نرى وفي العقود الأخيرة انتقال السجالات إلى هاتين الساحتين، فأصبحنا في مرحلة مخاض طويلة ومواجهة أشبه بالحرب العوان!

إلا أن خطاب الثنائية هو خطاب متأرجح ليس له ثوابت فهناك من يرى أن الأصل هو للتعبد الديني، بينما تركت فسحة محدودة مُكّنَ منها الواقع ويقف في الجانب الآخر من يرى أن الأصل للواقع والدين هو تبع له، وهذا مجرد تقييم أو انطباع خلفته في نفسي المداولات التي قرأناها من مجلاّت وكتب أو استمعناها عبر بعض البرامج الثقافية..

وأيا كان الانطباع فقد أصبح لهذا التيار شعاراته يقول محمود درويش: "احتمى أبوك بالنصوص فدخل اللصوص"، هو بيت ظل يردده عنه بعض دعاة تحويل الواقع إلى نص بوزن حسن حنفي مثلا![1]

(١) الاجتهاد الكلامي سلسلة قضايا إسلامية معاصرة:٣٣.

نزاع ومصالحة

بداية أشير إلى الأستاذ يحي محمد الذي هو أحد الباحثين الجادين في عصرنا، والمهتمين بشأن الخطاب الديني والآخر، وهذا تصنيفي الشخصي لقسم من كتاباته ـــ ولعله الباحث العربي الوحيد الذي درس جوانب كبيرة من أكوان الخطاب الديني و الكثير من عوامل سيروراته دراسة أصولية يلاحظ عليها الشمول وتعدد العناوين مع كثافة الأمثلة والمصطلح، والناقدون المعاصرون خصوصا يجدون متعة كبيرة مع كتاباته لما يتحمله عنهم من جهد الإشراف على الأفكار والأقوال؛ لأنه يشبع المقالة الواحدة بالمصادر والمراجع الكثيرة التي ينتقيها بعناية، هذا مع غض الطرف عن نتائجه التي يتوصل إليها برأيه.

فهذا الباحث القدير تناول الموضوع في كتاب منفصل، وفي زاوية من كتابه استطاع أن يجعل المواجهة مباشرة بين المثقف والفقيه، وحاول أن يعين مصادر التعارض ما بين مصدري النص والواقع.. وقال موضحا بالأمثلة:

إن الفقيه لا يتقبل الديمقراطية وحرية الرأي والتعامل مع البنوك واعتبارات الوطنية والخصوصية والمساواة وجملة من

قضايا المرأة وحقوقها وغير ذلك من المسائل العامة التي يضعها الفكر ضمن الاعتبار والقبول عادة، كما أن العكس حاصل وذلك أن المفكر يرى في اجتهاد الفقيه الكثير مما يصادم اعتبارات كل من المقاصد والعقل والواقع فهو مثلا لا يقبل ما عليه أغلب الفقهاء من تحريم نحت التماثيل ورسم الصور البشرية والحيوانية والكثير من مسائل الفن والإعلام...كما ليس من المتوقع أن يتقبل حكم بعض المذاهب الإسلامية في تحديد أصابع المرأة...

إلى قوله: وكذا من المؤكد أنه لا يقبل فتوى جماعة من الفقهاء في الحكم على بعض الأقوام والأجناس بكراهة التعامل معهم كما في البيع والشراء والتزويج وذلك بحجة أنهم من الجن... إلى... كذلك ليس من المتوقع للمثقف أن يثق بما يسلم به فقهاء بعض المذاهب من أن هناك ميزة بيولوجية تمتاز بها المرأة القرشية عن غيرها وهي أن سن اليأس لديها يكون متأخرا في المدة مقارنة بغيرها من النساء...الى الفتوى التي تعتبر ولد الكافر نجسا تبعا لأبويه باعتبارهما نجسين بسبب الكفر كما عليه أكثر فقهاء الإمامية، ومثل ذلك الفتوى التي تقول ولد الزنى كافر، وقال إن المفكر لا يعترض على نتاج الفقيه شرط أن

يتجاوب مع التجربة البشرية ولا يتعارض مع حقائق الواقع وسننه.[١]

وسألاحظ في تداخلي مع هذا العرض الفرق بين القضاء والمصالحة، فالحكم على ما جاء في هذه اللائحة فقرة بفقرة ليس من شأن طاولة الحوار التي نجلس عليها هنا، بل إنه يستدعي الحضور المنظم في قاعة البحوث العلمية، أو كتابة مقال جدلي مفصل في الكشف عن الخلل المنهجي وراء ما طرح من أمثلة، ولكن حسبي أن أقدم نقاطا أدلل بها على مزاج المبالغة الذي أصبح ضافيا على هذه السطور في شأن القطيعة!!

الإنتقاء المضر

إن الجدل بين الطرفين لم يحدد موضوعه بشكل واضح، فهل هو منهج الفقه أم توجه الفقيه؟

وإن جدولة الأقوال الشاذة فقهيا ومتابعة حالات خداج الولادة من الآراء ضمن ما يُزعم أنها الحملة الإصلاحية أو التجديدية للفقه يفتقد لأبسط مهارات

---

(١) القطيعة بين المثقف والفقيه: ١٤٠، يحي محمد.

الجدل، ويسير عكس خطوط الطوبيقا[١]؟!

ويجب التأكيد على أن التوجه الخاص بأحد أقطاب الفقاهة ليس من أضلاع المعرفة الفقهية؛ لذا هي ليست موضوعا للتجديد، وبالنتيجة لن تكون قابلة للنقد إلا في حدود المحاكمة المغلقة على ذات العَلَم باسمه وشخصه لا المفتوحة على العِلم ورحبه! لذا يمكنني القول بأن قصور بعض النخب عن معرفة مجالات التجديد التي طرقها يضاعف من تخبطاتنا الفكرية، ويعمق في الهوة بين المشروعين الديني والثقافي، ولحساسية هذه المرحلة من النقد تطرق إليها بتفصيل دقيق وببحث ضاف المفكر أحمد قراملكي[٢].

وفي النهاية فإن ممارسة الإشهار لهذه الآراء وتقديمها على لائحة النقد، هي ممارسة لتهييج الرأي المتابع، وهي بالضخ الإعلامي المشوش والمشكك أشبه منها بالخوض العلمي المشيد؟!

---

(١) الطوبيقا هو التسمية اليونانية لصناعة الجدل وتعد لفظة الجدل هي أقرب كلمة عربية لهذا الأصل اليوناني، منطق المظفر:٣/ ٣٦٠.

(٢) ينبسط هذا المعيار على كتاب الهندسة المعرفية للكلام الجديد للمؤلف نفسه وهو حري بنظر النهمين في هذا الحقل المعرفي الجديد.

وكم هي الشواهد التي تمثل هذا الانتقاء الخطير، قد نقلها عنهم الأستاذ يحي محمد وغيره كفتوى تكفير ابن الزنا التي هاجم فيها أئمة الفقه الامامي شورى العلامة والمحقق صاحب هذا الرأي واتهموه بعدم الدليل[1]، وكذا ما عداها من الفتاوى المشابهة؟!!

ومما ترتبط به هذه الصورة ذهنيا هي صورة المناظرات الدينية، فإن ذات الشفرة قد استخدمت سابقا في تعميق الجراح بين فريقي الإسلام (السنة/ الشيعة)، فغالبا ما يغمس المناظر من الفريقين ذهنه في بئر التاريخ ليستخرج فتاوى مضحكة لفقيه حنفي أو شافعي أو حنبلي أو جعفري، حتى صار هدف الجدال النكاية بالخصم لا الإفحام له، ويبدو أن تجربة التساب تعيد نفسها اليوم مع الجدل الثقافقهي؟!!

المبالغات والمراجفات

ويزداد مزاج القطيعة وضوحا من خلال إضافة بعض القضايا والآراء الفقهية في تقارير الخطأ والصواب من قبيل الديمقراطية وحرية الرأي.. في الوقت الذي لا يوجد

---

(١) سترى الاستنكار بينا على ألسنة أئمة الفقه بمراجعة نحو ذخيرة المعاد للسبزواري: ٥٢/١. المعتبر بشرح المختصر: ٩٨/١.

للديمقراطية ولا حرية الرأي معيار محدد في القوانين العالمية، ولا واقع موحد يأخذ به أقوام هذا الكون، فكل مدرسة قانونية أو دولة دستورية تحتفظ بتعديلاتها على مسائل الديمقراطية والحرية، وهذا عين ما يبني عليه الفقهاء الذين درسوا موضوع الديمقراطية، ونظروا في ملابساتها ولا أعرف مجموعة من بين الفقهاء الذين يشار إليهم قد انعكس رفض الديمقراطية كليا على فتاواهم..

ولذا بإمكاننا أن نستعير كلام الدكتور اللاريجاني لتحديد موقف الأعم الأغلب من الفقهاء وهو: بأن الليبرالية بحاجة إلى بعض الإضافات والتعديلات لتكون شرعية[١]، وبهذا الوزان يمكننا أن نفهم كلام الدكتور حسن حنفي: أن علينا القبول بشكل الديمقراطية والإبقاء على اسمها بأن نضيف إليها مضموننا الإسلامي فقط [٢].

بين الوقوع والواقع

لا شك في أن خطوط التقاطع بين الفقه والقوانين الوضعية ذات نسبة ملحوظة، وأن هذا التقاطع يخلق مناخا

---

(١) التدين والحداثة.محمد جواد اللاريجاني.

(٢) الاجتهاد الكلامي.حسن حنفي. ٣٦.

من الحساسيات السياسية والاقتصادية، وينال من العلاقات العامة بين أطياف بني البشر، ولكن هل القطيعة نتيجة حتمية لذلك؟؟

وإنما يمكن أن يؤدي هذا التصادم الواقعي إلى وقوع الفقه وتعثره بعمومه، ومن ثم يشرع للمثقف القطيعة في حالة واحدة وهي حين لا يكون للمنهج الفقهي مخرجاته الأولية المرنة والثانوية المتحركة التي يدير بها مثل هذه الأزمات، وليس في كل الأحوال..

والشيء الذي يتناساه المتجادلون حول الفقه غالبا هو أن الكثير من المخرجات للأحكام ـــ الأولية منها والثانوية ـــ ليست خيارا بين يدي الفقيه، بل هي غالبا انسياق أتوماتيكي، وانزياح طبيعي تحدده الظروف ويأخذ سمة الوجوب أو الحرمة في هذه الحالات المتبدلة للدرجة نفسها التي تكون للأحكام الأصيلة.

وكما للفقه مخرجاته الجاهزة، فإن للفقيه من حيث هو قيم مخرجاته الإضافية أيضا، مما يتيح له التحرك بالمقولة الفقهية وسط منطقة الفراغ الفقهي، والتي هي دالة من الدوال على اتساع التشريع الإسلامي للمتغيرات واستيعاب

الواقع بصورة شرعية وبالتالي فهي تكون قادرة على تسيير الكثير من أمور الحياة، وأبرزها مثال مسائل البنك المركزي الإسلامي..

واللطيف في الموضوع أن هذه المسألة طرحت من جانب الشهيد الخالد محمد باقر الصدر قبل عقود ولم يعارضها الفقهاء، رغم أن طرحه بمرأى ومسمع ومنتدى ومجمع من الجميع، وهذا ما يجعلنا مطمئنين برضى الأعم الأغلب ممن لم يتناول هذه المباحث علنا، ناهيك عمن اقتفى أثره من الأعلام البارزين في وقتنا كالإمام السيستاني الذي أعاد منطقة الفراغ صياغةً وقولبةً ضمن دراساته الأصولية[١]، وكذا الشيخ محمد مهدي شمس الدين أيضا[٢].

ومن بين الملفات التي تعطي إمكانية التغلب على الربويات البنكية فقه مجهول المالك الذي يحل لكل يد قبضته بمجرد الأذن الفقهي.

وهناك تفصيلات فقهية تقرأ في محلها تتبع ما طرقناه من

---

(١) اختلاف الحديث: ٤٦.

(٢) يرجع لها في كتبه التالية" الاجتهاد والتقليد بحث فقهي مقارن" و "الاجتهاد والتجديد"، وهذا أحد العناصر المتحركة في المنهج الفقهي ولي فيها مسودة نقدية لما طرحه هؤلاء الأعلام والباحثون.

عناوين، بل وتثير الكثير مما لم نطرقه هنا فعلا.

وعلى أية حال إذا كنا لا نرى الفرج في هذه المخرجات التشريعية التي لمحنا بعضها، وبقينا نصر على القطيعة لمجرد عدم التطابق المبدئي بين الصياغات الفقهية والقانونية، فهذا يكشف عن أنه ليس كل الخلاف مع التيارات الثقافية يشير إلى المرتكزات المعرفية بين المفكر والفقيه، كما اصطلح عليها الأستاذ يحي محمد[1]، بل هي إكراهات تتم ممارستها لتحقيق الانصياع أي ليست مجرد مطالبة بالنصوع، ولا هي محاولة مشفقة لتنصيع الفقه، مما يعني أن المقاطعة الثقافية - بحسب هذا التقرير - أشبه ما تكون بالدعوى الرأسمالية التي قامت وتقوم على سبيل المحاصرة لموارد العالم، وهي السياسة الناعمة التي اتخذت لتجريد الشيوعية والأنظمة الأخرى من كافة الصلاحيات والإيقاع بها أو الركون بها في ركن الضعف، بالرغم مما قد يمتلكه الآخر من بعد فلسفي لا يقارن بالرأسمالية التي لا فلسفة لها؟!

وأما إذا ما أحسن الاعتقاد أكثر فإن الاصرار على

---

(١) القطيعة بين المثقف والفقيه: ١٤٠.

القطيعة هو مطالبة بالتكافؤ الكمي والكيفي بين سؤال العصر وجواب الفكر، أي لا بد أن تتسابق أصوات الردود مع أصوات النقود!!وبالتالي فإن مجيء المخرجات من نفثة قلم هنا أو هناك لا يرفع النقمة على حالة السكون العام لدى العموم من أعلام الحوزة. ونحن نؤكد ونشدد على أن هذا أثرا من فعل الخلط السيء بين قياسين قياس اتزان الفقيه و قياس موازين الفقه؟!

مسائل مشكلة أم مسائل حرجة؟!

ليس بمستطاع أحد يقرأ ويتابع أن ينكر وجود خطوط متوازية عصية على الالتقاء بين الفقاهة والثقافة، وليس هنا ما نحاول تمييعه أو التكتم عليه، ففي الألواح الفقهية زوايا زلقة يتزلق فيها القلم ولا يتمكن من أن يملي فيها بما يريد.

والخطورة كلها لدى عملية التسمية والوصف لهذه المرحلة.. فالكثير يدعوها "مشكلات أو إشكالات فقهية"، وهذه التسمية بعيدا عن إيحاءاتها الكاذبة فإنها تعد تقييما للمنهج الفقهي وليس لتوجه الفقيه؟!

في حين أنني أدعي بأن غالبية المسائل التي يدور حولها الجدل هي مسائل حرجة، أي أنها بحاجة إلى جرأة تمنع منها

الحسابات الاجتماعية، والجانبية، وليست على صلة بالحسابات العلمية!!؛ ولذا نحن ننتظرها بمقدار ما يتم معه معالجة تلك الحسابات فقط، وذلك من قبيل الكثير من مسائل المرأة التي لا دليل على التميز الفقهي لمن سارع بإعلان الجديد فيها؛ لأن طريق التحول فيها متاح صناعيا وإنما توقفت عند مرحلة التعليب والتغليف فقط!!

ويتأسس على هذه النظرة أن منح صفة التجديد على أساس السبق إلى الفتوى نوع من الابتذال، إلا أن تكون الفتوى من القوة والحاجة بحيث رسمت سكة طريق انعطفت باتجاه الحياة العامة للمؤمنين فهذا يمكن أن يحتسب على التجديد التاريخي ـــ لا العلمي طبعا ـــ كما لاحظنا مع فتوى التنباك للميرزا محمد حسن الشيرازي رحمه الله، بل الكثير من الفتاوى على مر التاريخ[1].

وأما المشكلات فهي التي تجد المعوقات الصناعية والذوقية الخاصة، بينما التجربة الرائدة لبحث المسائل المستحدثة وفي غضون ٥٠ عاما سواء الأبحاث التي تمثل دروس بعض الأعلام والأساتذة، أو المقالات التي ضمتها

(١) راجع كتاب الفقهاء حكام على الملوك. حسن الدجيلي.

بعض الدوريات الحوزية كمجلة فقه آل البيت، فإنها تشهد كافة على عدم وجود جدران فاصلة، وعلى أن عملية التوظيف والتخريج لازالت تتطور باضطراد.

لذا فخيار القطيعة الذي ربما يشعرنا به بعضهم، هي ردة فعل من وهم الفعل الذي لا واقع له، وحالة من التهاويل التي ربما لا تكون مقصودة.

ولكن ومن باب إحياء سنة الإنصاف نقول: إن التطور الذي ندعيه لا يزال يسير ببطء فهو لا يسد باب الحاجات فضلا عن أن يفتح باب التكهنات والحسابات المستقبلية فليس على غرار ما هنالك من بحوث علمية استطاعت أن تطلق عنان الخيال العلمي للتحدث عن مشكلات متوقعة وتنخرط في سبيل تحضير الحلول لها!!

إذا عرف السبب فتر العجب

وإني أوعز التباطؤ الذي تعاني منها الجامعة الحوزية إلى عدم ارتباط حركة البحوث فيها بالإدارة المؤسساتية، وقد رأى الجميع أن الحركة البحثية في الجامعات العالمية وبالرغم مما حققته من إنجازات علمية إلا أنها لم تأت في البداية من باحثين مسكونين بهم البحث، وإنما هو دور يتوسل به

الطلاب والأساتذة أمام الأنظمة التي ضيقت فرص التخرج من الجامعة أو الترقي فيها بوضع شروط تصب في صالح الانتاج وتحريك أجواء البحث القسري!! وهذا من ميزات الإدارة المؤسساتية في المعاهد العلمية، ولا تزال الحوزة ناقصة من هذه الجنبة.

من إدارة الذات إلى إدارة الحياة

س/ ما هو دور عالم الدين تجاه نفسه وتجاه المجتمع؟ وهل دوره واضح؟

ج/ لا يحسن ــ بنظري ــ التفكيك بين عناية الفرد من العلماء بنفسه وعنايته بمن تجب عليه مواكبتهم، والالتزام بتقديم الواجبات الدينية تجاههم؛ فتصوري الشخصي يشير إلى أن العالِـم أو المتعلم متى وعى نفسه فإنه وبكل تأكيد سيعي موقعيته ومسؤولياته التي يتداخل بها مع المجتمع من حوله...

بل ألفتكم هنا إلى أن أول درجات الفقاهة التي يُثبِتُ بها المتفقه في الدين سلامة توجهه نحو الهدف الإلهي هي فقاهته بالمنزلة التي يطلبها، والمستقبل الذي يرمي إليه بدراسته الشاقة وتحصيله الطويل!

وقد ألهم طالب العلم ورجل الدين بهندسة الوعي الذاتي، عِبر مشافهات كثيرة من أصحاب مقام الإمامة عليهم السلام، إذ تعددت في أحاديثهم الصفات التي يجب

أن يتخذها المتعلم والعالم مبدأ، أتوقف هنا عند أكثر العناوين حساسية وأشدها أهمية:

١- الأمانة العامة في إدارة شؤون الإسلام وما يحتاجه المسلمون في أمر دينهم، فهذا هو المنساق من قوله صلى الله عليه وآله: «العلماء أمناء أمتي»[١]، و«من عمل بعلمه أدى أمانته...»[٢].

٢- مسؤولية ملء الفراغ النبوي الذي يتسبب فيه موت الأنبياء والتحاقهم بالرفيق الأعلى، ويتم ذلك بالقيام الحسن مقام خلافتهم ووراثتهم، ستدرك هذا لو استمعت إلى قوله صلى الله عليه واله: «العلماء...خلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء»[٣].

٣- إشاعة أجواء الايمان ونشر عطره في كل أرجاء الحياة الاجتماعية، وهذا هو سياق قول الامام عليه السلام: «العلم حياة الإسلام وعماد الإيمان»[٤]، ويبدأ هذا الدور الحساس بالإشراف والمراقبة لسير المراسيم الإيمانية وإن لم يباشرها

---

(١) كشف الخفاء:٢/ ٨٤، وقريب منه الكافي: ١/ ٣٣.

(٢) الدرة الباهرة: ١٧.

(٣) كنز العمال: ١٠/ ٧٧.

(٤) الجامع الصغير:٢/ ١٩٢.

بنفسه كالصلوات الراتبة والصلوات الموسمية كالعيدين والاستسقاء مثلا، ومثلها الحضور في النفرات الروحية العامة كالحج والاعتكاف، ويمكن أن يتجاوزها إلى أبعد من ذلك حسب فرص الزمن وتطلعات الجيل، لأن الدين عطر يضيف الجاذبية في كل مشروع وموضوع، ومع كل مكان وزمان.

٤- أن يكون العالم بمستوى الميثاق الجهادي لمقاومة الجهل في الأمة، وهذه مهمة يجب أن تستنفد فيها كل الطاقات الذكية وهي متعددة المظاهر، ولكننا نقصر المثال على مظهرين:

- مظهر السيولة في بذل العلم وإنفاقه وتجنب كتمانه..

- مظهر الارتحال المستمر إلى حيث يقيم ضعفاء الشيعة وضعفاء المسلمين وعدم تركها فارغة لكل صادر وارد، وهذه من أخطر مفردات ميثاق المقاومة للجهل، ومما تحدث به سادس أهل البيت عليهم السلام: «علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته»[1]، وهذا رصد دقيق منه لتحركات شياطين الجهل وجنوده الذين

(١) بحار الأنوار ٢/٥.

يشهرون أسلحة الخطابة واللغة في المجتمعات الدينية المنقطعة ويوسعون أدوارهم في التجمهرات التي يغلب عليها سواد الناس ويصلون الليل بالنهار في إلقاء الخطب وبث المقالات المتشككة والمشككة!!

ونحن عندما ننعم النظر في هذه الأدوار فسنقف أولا على نقشة الإخلاص في طريق العلم، وأن العالم إنما يقاس إخلاصه وتفانيه بقدر تمثلاته لهذه المعايير، وسنرى ثانيا أنها معايير ذات وجهين؛ إذ نرى على وجهها الأول أربعة مؤهلات ينال بها العالم ثقة الإسلام به.. ونرى على وجهها الثاني مراكز حساسة تجعله يتوسط ساحة ميدان المنافسة الاجتماعية لا أن يكون كمن يكتفي بالجلوس على مقعد من المقاعد التي على الهامش لأن تلك تشبه مقاعد المتفرجين على مدرّجات الملعب الذين يمثلون ظاهرة صوتية ملتهبة لا أكثر، بينما يجب على طالب العلم وبحسب القائمة أعلاه أن يكون لاعبا أساسيا داخل مربع المنافسة لتحقيق أهداف وآمال المجتمع.

فمتى تعب في إعداد نفسه وفق الهندسة الإلهية المرسومة فإنه سيرى نفسه خبيرا في تشغيل وتفعيل الحياة، وأنه أكثر المعنيين بهذا الشأن..

وهذا كل ما أردت أن أوضح به استنكاري للتفكيك بين واجبه تجاه نفسه وواجبه تجاه مجتمعه!

البذخ الفكري متى يكون أو لا يكون؟

س/ هل من الممكن الجمع بين تخصص علم الدين وتخصص آخر أكاديمي؟

ج/ ينبغي على طالب العلم أن يكون ضنينا بالوقت والجهد فلا يبذله فيما هو ترف بالنسبة له، ولو كان ترفا فكريا ومعرفيا، فعليه أن يتمحض فيما تفرضه عليه مسؤولياته وتطلعاته الدينية فالاشتغال بأي علم أو فن آخر سيقضي على فرص رابحة مع العلوم الدينية التي هي مجاله فعلا.

ولكن يبقى بعيدا عن خط السرف الفكري، الاشتغال بكل ما له صلة في تتميم مشروعه الرسالي سواء في الصدد العلمي أو الاجتماعي، فقديما قد انفتح العلماء على بعض العلوم كالفلك والرياضيات؛ لأنهما قاعدة للفيف من المسائل الفقهية، والنظامية.

وطبعا نحن هنا نتحدث عن متطلبات العلم في نفسه..

وأما إذا قسنا الأمور بمقياس متطلبات العصر فلا لبس

لدينا في أن المعالجة الأخلاقية والشرعية لكثير من مشاكل عصرنا (عصر ما بعد التحول الصناعي والمعرفي) نجاحها مرهون بأسباب حيوية، وفي طليعتها الحصول على ثقافة عامة تعصم من الخطأ في تحديد مركز المشكلة التي يراد إصلاحها، وفي عصرنا يعد التنوع الثقافي لدى طالب العلم بمثابة عملية ليزكية لتحسين رؤيته حتى يتمكن من تشخيص عمق القضية وطبقات المشكلة التي يشغل عقله وفكره بفهمها، بل هذا التنوع هو من عوامل الجذب والثقة والتميز الذي يكون به محمودا وأكثر قابلية ومقبولية في بيئته الاجتماعية.

الصداقة في حياة طالب العلم كمال

س/ هل يلزم من طالب العلم الحوزي التخلي عن الأصدقاء والأحبة؟

ج/ لعل هذا السؤال نابع من وهم معين وهو أن طالب الحوزة رجلا هو أو امرأة يجب أن يظهر للناس بالصورة الملائكية، وبما أن الملائكة لا أصدقاء لها من البشر، فإن ترك الأصدقاء أو التقليل من الإخوان تشبه قوي بالملائكة!!

وأنا لا أنفي أن هذا الوهم خلق لنا بعض الطلبة الجافين، ولكن ما أقلَهم اليوم فلا سبيل للتعميم؟!

ومن الواضح الذي لا غموض فيه أن الصداقة مغروسة في كل حيوان اجتماعي على وجه الأرض ناطقا كان أو غير ناطق، وهي من أبلغ السنن الاجتماعية تأثيرا، وكل أنواع العلاقات في حياتنا تبدو بمزاج الصداقة حتى النَسَبيّ منها، فمثلا العلاقة بالأب أو الأم أو الأخ أو الأخت أو الزوج/ الزوجة، أو الولد،... فالعلاقة بأي من هذه الأطراف لا تكون ذات مزاج معتدل إلا مع الصداقة!

والصديق المتواطئ معك بيده وعقله وكل كيانه ليس مجرد إضافة عابرة في حياتك تستطيع أن تعبث بها متى ما تشاء، ولكن يجب أن تعلم أن الصديق ضرورة ماسة، والإسلام الحنيف لم يقطع طريق الصداقة بل عَبّدَه ووسعه.

ولو أننا طالبنا كل متسلق لقمم العلم بترك الأصدقاء لحرضناه على الخيانة بأبيه وأمه وأخيه... ولحرضناه أيضا على التخلي عن قيمه الدينية!! ومن أبشع حالات النقص الغريزي هو العجز عن الصداقة، والفشل في التكيف مع الأصدقاء، وأحرى بمن يريد طلب العلم أن يتنزه عن هذا العيب.

نعم يجب على الناشد للعلم أن يهيئ لنفسه مناخا آمنا للدراسة والعب من حياض المعارف، وهذا ما سيحمله بطبيعة الحال على تنظيم علاقاته وترك الأصدقاء الذين سيأخذون أكثر من حصتهم في قسمة الوقت والهمة بينهم وبين مسؤوليات العلم، ولكن هذا لا يغنيه عن الأصدقاء المتناغمين والمنسجمين مع شخصه وأهدافه!

وفي القراءة النهائية: إن هذه مشاكل تنشأ نتيجة التشابك بين السلبي والإيجابي في الفهم فيختفي وجه القضية

على ضعيف النظر فلا يدري أهو هذا أم ذاك؟!

ومما يعين على تصحيح هذا التشابك العودة إلى واقع وتجارب الأعلام في التواضع والتبسط مع الناس وما علينا إلا أن نستحضر السيرة الطريفة التي تحكي لنا جانبا من حياة الإمام السيد محسن الأمين مع المؤمنين[1].

(١) انتقل إلى الصفحة: ٥٠.

الاختلاف الخلاق

س/ ماذا عن مشكلة الاختلاف في الآراء في جميع نواحي العلم الديني؟

ج/ عندما نفتح سجل الخلافات والآراء فلا بد أن نتذكر أولا الركائز والثوابت المحفوظة في كل علم من العلوم الدينية التي ليست قليلة في نفسها، وأن دور الحفاظ عليها مرهون بهذه العلوم التي يمثل كل منها معهدا دينيا كالفقه، والأصول، والكلام، والتفسير، والحديث...

فأول نتيجة نتوصل إليها من هذا هي أن الخلافيات لا تقلل من شأن العلم..

بل إن الخلاف داخل العلم لا يثير الاستغراب؛ لأنه حيوية فكرية لا ينسلخ منها علم من العلوم إلا ما شاء الله!! وقد اطلعت في الأيام القريبة الماضية على مثال في الطب وأن بعض الأمراض في هذا العلم تضم مدارس منتشرة في العالم، لا سيما الأمراض ثقيلة السمعة.

فبعضهم مثلا يتحدث عن سرطان الثدي بأنه سبب من

أسباب الموت لذا من الوظيفة العاجلة للطبيب أن يضع المريض على سرير الجراحة أو يباشره بالعلاج الهرموني أو الكيميائي، فيما تنفي بعض المدارس كونه سببا قاتلا، وبالتالي لا ضرورة لإعلان الحالة القصوى بين يدي المرضى!

وما يجب أن نعرفه هو أن الخلاف إذا كان يمثل التدارس فلا يعد كارثيا، بل هو مما يرجى منه الفائدة ولو بعد زمن بعيد، فالتدارس لهذا المرض مثلا له فائدة وهي أن الرهان سينتهي بفوز إحدى المدرستين، ويحيل الأخرى إلى رفوف التاريخ ولو بعد قرون، وهذه هي الثمرة الطبيعية التي ستضاف إلى سلة العلم والحياة..

وبعيدا عن دقة ثقتنا أو شكنا في المثال الطبي.. فما لا يعرفه الكثير عن الاختلاف العلمي ـــ الذي هو من نوع التدارس ـــ هو أنه تفاعل خلاّق وعملية تداول ربحها سيكون ملكا لمن سيرث هذا العلم ولو بعد أجيال!!

وببساطة فإن الخلاف ومقابلة الآراء بالآراء هو تلاقح طبيعي أو اصطناعي، وعملية نمو بطيء، وربما لم يركز الكثير حتى من طلبة العلم على أن علم الفقه والأصول والكلام والحديث في القرون المتأخرة أصبح يملك ثروة من

الثوابت والنظريات والمخرجات العلمية، لم يتوصل إليها علماء و لا محققو القرن السابع والثامن الهجري وما قبله مثلا!

فهناك الكثير من النظريات التي تحولت إلى ثوابت أو شبه ثوابت ولها الأثر البالغ في تحديد الموقف الديني كنظرية الترتب، والكاسرية والجابرية، وتقسيمات الشبهة إلى مفهومية ومصداقية واختصاص كل قسم بحكم، زائدا على ذلك بعض أقسام الاستصحاب، وما سوى ذلك الكثير مما لا نجد له عينا ولا أثرا في دواوين وكتب العلماء السابقين، أو قد يكون موجودا على صورة خلافيات ثم نمت وتكاملت صورتها اليوم فيما بقي القسم الآخر من الخلافيات نعتقد بأن العصور القادمة ستبشرنا بتحولات كبرى معها...

واللافت في دراسات الحديث ـــ أحد العلوم الرئيسة في الجامعة الدينية ـــ أن الدارسين استطاعوا بدءا من القرن الرابع[1] أن يكشفوا عن أبواب تجمع مواقف متوافقة لإمام

(١) هذا عن مرحلة تدشين العلم واكتمال مشروعه، وأما مراحل تشييده وبنائه فقد بدأت من العصر الأول وكان أشهر حديث في تصنيف الرواية والرواة هو لعلي عليه السلام برواية سليم وقد أوردها الكليني ثبته الله، كما أن تقييد الرواة بطرق

بحجم الصادق عليه السلام، أو بين عدة من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبوبوا الأبواب في الحديث لجمع تلك المتوافقات، التي لم تكن في السابق سوى متفرقات متناثرة في طروس الرواة ترى حديثا أو حديثين منها لدى راو في قم، ومثلها لدى راو ثان في بغداد، وآخر لدى راو في مصر[1]، وسرعان ما أثر هذا الاكتشاف فصار سببا في تقدم النظريات على الصعيد الفقهي والكلامي، لأنه سابقا لم يكن بإمكان عالم في قم أو بغداد أن يبني نظرية على خبر آحاد، ولكن وبعد أن تم جمعها على يد الثقات أصبح الوقوف على حصة المسألة الكلامية أو الفقهية من التواتر والاستفاضة أمرا ميسورا الشيء الذي كان يجب أن يُحدث فيما بعد نقلة على صعيدي الفقه الأكبر والأصغر..

ولم تتوقف المسيرة عند هذا المستوى ولكنه وفي القرون

التحمل المعروفة واضح ويظهر لك بأدنى مراجعة للنصوص، فأنت ترى الراوي إذا أراد أن يقول سئل رجل الإمام... قال: "وأنا عنده" أو "وأنا حاضر" أو "وأنا أسمع"، أو يقول "عن غير واحد من أصحابنا"، فهذه وما سواها من الظواهر كانت تخضع لما يعرف بعلم المصطلح أو علم الحديث.

(١) ذكر مصر هنا على سبيل الحقيقة لا التخييل والتمثيل فكثير من المقيدات أو العمومات وجدوها في كتب مثل القاضي النعمان الذي كان بمصر، نظير كتابه الدعائم.

الأخيرة تم التوصل إلى معالجة بعض الأسباب المانعة من التمسك ببعض الأحاديث في مجالي الفقه والعقيدة، وهذا أوصلنا إلى إغلاق بعض التداولات التي كانت محل خلاف.

إذن... فمن لم يجلّ هذه الحقائق سيبقى يتوهم أن الخلاف عبارة عن متلازمة فكرية بما تحمله كلمة متلازمة من معنى مرضي، بينما نؤكد نحن على أن الخلاف طريقة حيوية في بناء وترميم المسائل العلمية.

ممارسة البحث والمكث

س/ ماهي كيفية إتقان المواد الدراسية؟ وعلى وجه الخصوص اللغة؟

ج/ هذا سؤال [عملاني] يمكن أن يطوى بخلاصة تجارب العلماء.. وما ظهر لي بحسب التتبع ونجح معي في التجربة الخاصة ممارستان:

ممارسة البحث: أن يتحول الطالب بعد تجاوز مراحل الدراسة والتلقي الابتدائية والمتوسطة والعالية إلى البحث والنظر المستمر في العلم الذي ينسجم مع ميوله او أهدافه..

ممارسة المكث: وهي لا تقل أهمية عن الممارسة الأولى وتكون متزامنة معها أيضا، وهذه الممارسة تظهر في ظاهرتين رئيستين:

أ) المكث عند المدرسين ذوي الطابع المدرسي الخاص الذين يمتلكون امتيازات فنية وأذواق علمية عالية، فقد مكث الشيخ حبيب الله الرشتي والآخوند الخراساني وكثير من الأقطاب في مدرسة الشيخ الانصاري رغم تمتعهم برتبة

الاجتهاد حين مثولهم بين يديه.. ومكث الإمام السيستاني والسيد الصدر طويلا عند السيد الخوئي أيضا حتى استمر حضور الأخير منهما لدى أستاذه أربعة عشر عاما بالرغم من أنه كان مجتهدا وفقيها قبل أن يخرج من شرنقة الصبا، ومكث أستاذنا السيد الخرازي لدى الشيخ الأراكي أربعة عشر عاما بالرغم من أنه كان يلقي بحوث الخارج في عرض دراسته على يد أستاذه!

ب) المكث مع الكتب العلمية التي نَسَخَتْ ما قبلها وبَعدُ لم ينسخها لاحق؛ إذ في كل علم تظهر كتب ذات فرادة وتميز تتمحور حولها أنظار رجال ذلك الفن بجميعهم ويولونها دراسة وتحقيقا بلا كلل ولا ملل، ومن طرق المكث القراءة المستمرة لهذه الكتب..

فقد قرأ الشيخ الرئيس كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة، وهو مع ذلك لم يفهمه حتى وقع بيده شرحه للفارابي!![1]

وقرأ السيد إبراهيم القزويني كتاب قوانين الأصول لأبي القاسم القمي ستين مرة!! ولهذا استطاع أن يكتب كتاب

---

(١) موسوعة الفلسفة. عبد الرحمن بدوي. ج١ / ٤١.

ضوابط الأصول في شهرين!![١]

و قد مرّ السيد إسماعيل الخواجوئي على كتاب الشفاء لابن سينا ثلاثين مرة إما بالقراءة أو بالتدريس أو بالمطالعة حتى حفظه ثم سقط من عنده أوراق من القطع الكبير والتي ربما تعادل التسعين صحفة من الصف الإلكتروني، فكتبها من ظهر قلبه فلما عورض بكتاب صحيح ما شذ منه إلا حرفان أو حرف!![٢]

وقرأ بعض فضلاء القطيف المعاصرين قطر الندى ثلاث عشرة مرة في شهر رمضان فقط، وقد كاد أن يكون إماما في علوم اللغة لولا عادية الزمن؟!!

---

(١) قصص العلماء للتنكابني: ١٢.

(٢) مقدمة تحقيق الرسائل الاعتقادية بقلم السيد مهدي الرجائي. ج١ / ٩.

ذوبان العلوم بعضها في بعض

س/ هل يلزم لكي أختار تخصص علم الدين أن أحب جميع المواد التي تدرس فيه؟

ج/ لا يكون العلم علما مستقلا عندهم إلا إذا كان متكاملا في نفسه ويستطيع الوفاء بغرضه وغايته، فلا يدع مسألة يحتاجها ولا قاعدة يتكئ عليها إلا وقد أفرج لها عن صفحاته، وهيأ لها الإقامة بين موضوعاته، فمن ينظر إلى هذه الميزة أو تلك في العلم الذي يشتغل ببرمجة عقله عليه ربما يتساهل في الاهتمام بالمواد الأخرى بحجة أن العلم الذي يطمع في التخصص فيه مستقل بنفسه، وهذا التفكير طبعا يأتي من تجاهلنا لحقيقة ترتبط بالواقع، وإذا أردت أن أتكلم عن تلك الحقيقة ولو بالقليل فإني أسكبها تحت عنوان:

التشابه العائلي بين العلوم

إن أي مجموعة من العلوم إذا نشأت أو تربت لمئات السنين في جامعة واحدة عريقة فإنها ستصبح من حيث الشبه كأفراد أسرة واحدة، فتبدو ـــ في عيون غير المميزين ـــ

متشابكة الأطراف متداخلة الأقسام وكأن بعضها ناظر لبعض، وهذا هو الحال في العلوم التي تعايشت معها المعاهد الدينية ــ شيعية وسنية ــ فإنها تمتزج قهرا مع بعضها، ويَرْشَحُ بعضها على الآخر، فيقذف كل بحر ببعض ثرواته في حوض البحر الآخر.. وقد يصل الامتزاج بين علم وعلم درجة تفوق العادة!

لهذا اشتهر في الحوزات الشيعية اسم الملائي على من يتقن جميع العلوم العقلية والنقلية، ويتجلى الارتباط بين هذه العلوم في تحقيقاته وبحوثه الشخصية، فإذا قرأت للمير داماد كتابه الرواشح السماوية مثلا، أو قرأت للبهائي العاملي الحبل المتين في الفقه أو غيره رأيت حديثه مطرزا بخيوط من بكرات علمية مختلفة وهذا الحال مع غيرهما ممن جمع الفنون كما جرت العادة أن تتصدى هذه الشريحة المميزة بالموسوعية لمجالين عميقين وهما:

١- تفسير القرآن.

٢- شرح الأحاديث والأدعية.

إذ إن كلا من القرآن الصامت والقرآن الناطق يمثل مجمعا لكافة المسارات الفكرية الفلسفية والكلامية والعرفانية

مضافا إلى الأصولية والفقهية واللغوية، والموفقون لصناعة التفسير للقرآن والبيان للأحاديث هم هؤلاء، وهم من يستحق لفظ عالم وعلاّمة بجدارة لا بالاستعارة!!

وأشير هنا إلى أن هذا أحد الأسباب الموضوعية وراء اختصاص الأبحاث القرآنية بالعدة القليلة من العلماء في الحوزة وعلى مر العصور؛ لأن مرتبة "ملا" أو "آخوند" أو "علاّمة" هي من المراتب الممتنعة إلا على الأوحديين من الرجال..

وعلى أيٍ يمكنني أن أوثق فكرة التداخل في صور نلقيها عليك إلقاء سريعا:

لو عدنا لملف الجبر والاختيار والطلب والإرادة وهما بحثان كلاميان بامتياز، فإننا لن نجد بغيتنا مع هذا المبحث وذاك إلا في علم الأصول!

وعندما نتكلم عن أهم قاعدة من قواعد علم الكلام، وهي قاعدة الحسن والقبح فسوف نرى لبعض الأصوليين رأيا هو على مسافة من رأي المتكلمين، وقد أشار إلى ذلك

الشيخ الكمباني في حاشيته على كتاب كفاية الأصول[١]!

وهكذا فيما يعود لقاعدة اللطف الإلهي التي قام الأصوليون بتجديد النظر ومضاعفة الأبحاث فيها!

كما تمكن هذا العلم من استضافة مسائل عديدة من مسائل النحو العربي وقواعده وهي منتشرة على سعة مباحث الدليل اللفظي(أحد أقسام الدراسات الأصولية) ولعل النائيني ـــ من السابقين ـــ والسيد محمد سعيد الحكيم ـــ من المعاصرين ـــ في كتابه "المحكم" من أوضح الأصوليين الذين يدلون بخاطرات نحوية ضمن دراستهم الأصولية.

وقد أفرغت الدراسات اللغوية في كثير من مشكلات لفظ القرآن والحديث ومسائل الفقه وقضايا الكلام كما في طبيعة مناقشات النحويين وعلماء البلاغة لآية الوضوء، أو تقارب مخارج الحروف في بعض الآيات، أو إفادة لن للنفي المؤبد، وهذه المسألة بالذات على صلة بمقالة رؤية الله عز وجل التي اختلفوا فيها نفيا وإثباتا، وهكذا العديد من المسائل الأخرى التي يعرفها المطلعون..

وفي النهاية يمكننا أن نجمع الجواب في كلمة وهي:

---

(١) نهاية الدراية: ٢ / ٣٢٧.

إن العلوم في دائرة الحوزة هي شبه شبكة متلاحمة الأطراف، إلا أن التخصص في جانب منها لا يستدعي أزيد من دراسة مقرر أو مقررين من كل علم من العلوم الأخرى لملاحظة مقدار الاتصال بين أعضائها.

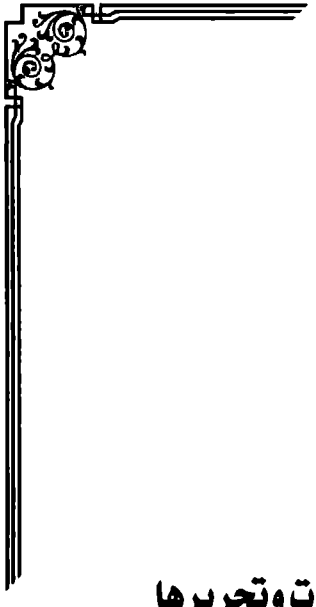

تطور الذات وتحريرها

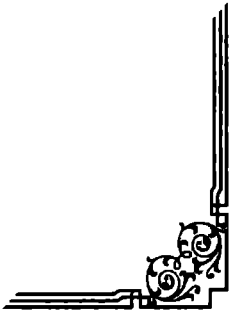

لواقح الرغبة

س/ كيف عرفت نفسك (بأنك ستكون مقيما في بيئة علماء الدين)؟

ج/ عندما نعود إلى ذاكرة الثمانينيات من القرن المتولي عنا فإننا سنلتقي بعصف إسلامي غطى المنطقة وكان المراهقون الذين نحن في عدادهم آنذاك أشد الناس تأثرا به كما كان للشباب آنذاك محاولات متواضعة لكنها كثيرة في سبيل تعميم ونشر الثقافة الإسلامية تتراوح جهودهم بين حلقات التدريس الفقهي، وإقامة الاحتفالات، وإعداد الرحلات الدينية، واستيراد الكتب، فكنت أرى نعمة التفقه في الدين وأتذوقها مع كل متحدث أستمع إليه، أو كاتب أقرأ له، ثم نما عندي هذا الشعور حتى صرت لا أتخيل لنفسي مستوى أدنى من ذلك، وساعد على تفتق الرغبة هو أن الأسرتين الكريمتين من جهة الأم والأب يحملان الكثير من صور العلماء صورا في الذكرى وأخرى حية والحمد لله على كل حال.

حجاب الشباب

س/شبابك كيف كان اتصاله بالعلم؟

ج/ الشباب يُقتل إذا اجتمع مع الحجاب الذي يحجبه عن التكامل، ومن الحجب تلاشي التوجيه والرعاية الجادة للشباب من النواحي الفكرية والدينية... ويزداد الألم بالشباب إذا كان يعي مشكلته ويعيش الآمال والتطلعات الكثيرة، ولكنه ينادي من يخلصه فلا يسمعه، أو يسمعه فلا يجيبه!!

كنا شبابا مستضعفا في إرادته... وهذه علامة فارقة بين شباب الأمس وشباب اليوم، قبل ثلاثة عقود كان الشباب يعاملون كأطفال ومن السهل تكميم أفواههنا وقطع أيدينا وأرجلنا عن السعي وراء ما نصبو إليه!!

فالطموح العلمي والديني الذي نطلبه لأنفسنا أو نتحدث به أمام آبائنا كان مجهولا بالنسبة لهم، ومن الصعب على الأب ــ المعني بك ــ تشكيل نظرة متزنة حيال المجهول الذي تدعو نفسك إليه، لعدم تشكل ثقافة أو رؤية

خاصة بالتعلم والتنور، ولعدم توفر سبل التواصل؛ ولذا فالحل الأقرب من وجهة نظر الآباء كان هو الرفض والكبت لتلك الرغبات!

فكنت وفي ظل هذه الأجواء أخطو خطواتي نحو الأمام لكن على أرض زلقة ربما استدارت بي إلى الخلف من حيث لا أريد!! حتى بعد أن انضممت إلى مدرسة هدي الثقلين ــ أعني الحوزة ــ لا زلت أقوم وأعثر لكن حبل الرغبة كان فولاذيا واللحام المتصل بقدمي كان قويا... فاستمر بي الحال على هذا سنتين من عمر شبابي، ولكن كانت ألطاف الله ومكافأته لي كبيرة بعد التغرب العلمي في قم المقدسة، إذ ليس هناك خوف من الضياع ولا جوع في العلم، ولا نقص في الحكمة فيما يحتاجه الطالب الصاعد والواعد؛ لوفرة العلماء والأساتذة والموجهين، لاسيما وأنني استفدت من الأموات ــ الذين كنت أمر على قبورهم وأقرأ تجاربهم ــ قبل الأحياء، فتلك نعمة أنعمها الله عليّ وأسأله أن يثبتني على واجب الشكر لها، وأن لا يترعها مني إنه مولاي ونعم الناصر لي على نفسي.

آهات التجربة

س/ ماهي زبدة تجربتك من حيث إنك رجل دين؟

ج/ طريق التجربة العملية التي يخوضها طلاب وخريجو الحوزة العلمية ـــ وأنا أصغرهم ـــ لم يكن ولن يكون مفروشا بإكليل الورد... فهناك احتياجات، ومواجهات، وتباينات جرتني إلى تنوع الأدوار في الخطابة والكتابة والتدريس، والكثير يرى أن هذا هو نتيجة لتعدد المواهب، ولكن ليس بالضرورة ذلك... فأنا أعتبرها معاناة أكثر من كونها قوة!! كما أنها ليست رغبة في تعدد وسائل الوجاهة نستجير بالله... إلا أن سعة الاحتياجات وقلة الموارد تفرض على مثلي تشابك الاختصاصات، وبالتالي يكون من الصعب تحديد بوصلة العمل!!

وزبدة التجربة لدي ـــ وهذا هو مركز السؤال ـــ أنني كنت أشعر بأن النخب من أبناء المجتمع والنخب من أهل العلم بحاجة إلى تصالح أكبر مما عليه اليوم، وقد تحول هذا

الأمر إلى مشروع شخصي تأثرتْ به كلماتي ومواقفي فأصبح الأرضية لكل الأدوار التي أقدمها بين يدي الدين والمجتمع...

وهنا نقطة نظام تتجلى في السؤال التالي:

كيف عسى أن يتم التصالح بين الفئتين وهل يمثل التصالح رغبة الجميع؟؟

والجواب المتناغم مع هذا السؤال لا يتحمله حوار عابر كحوارنا ولكن يسعني القول أنه:

ليس يتم موقف التصالح إلا بالتوافق في النظر إلى المستجدات، وطبعا هنا إشكالية تسببت في تعقيد الأمور وهي أن الكثير يفهم من الدعوى إلى التوافق في النظر إلى المستجدات على أنها دعوى إلى التوافق في وجهات النظر الفكرية والخيارات العملية، فيجب أن تكون كلمتنا واحدة وخطواتنا واحدة أي ندير الموقف بيد واحدة، وهذا لا معنى له إلا أن تُسَلّم نخبةُ الثقافة والفكر لنظيرتها العلمية، أو العكس، ولكن ليس هذا ما أريده أنا، ولا هو ما تحتاجه الساحة المشتركة بين النخبتين!

بل أقول محذرا إن هذه دعوى ذات مضامين عنيفة؛

لأنها تصور الواقع على أنه صراع حقيقي وأن الحل في الاستسلام والانهزام الذي سيلحق بطرف من الطرفين، وهذه الدعوى تعادل نظرية خاطئة همس بها الواقع الممزق وهي: "ليست الحرية بالتفاهم... الحرية هي إقصاء المزاحم""؟!

ولا شك أن الاقتناع بهذه النظرة يشكل عبئا على الإنسانية قبل الفكر!

بينما أظن أننا سنتصالح سريعا عندما نتوافق في النظر إلى واقع الكثير غير القليل من المستجدات والمتطلبات الحديثة، بعد أن نعرف أنها تبتنى على الوضعية وليس على القضية.. يعني أنها ذات واقع استراتيجي وليست أكثر من الواقع الأيديولوجي، وعلى حد تعبير الدكتور حسن حنفي هي مسائل سياسية بالمعنى العام للسياسة وليست معرفية.. ولابد من مثال، لأن ما يصعب أن يتضح بالمقال قد يتضح بالمثال:

في صلح الحديبية عندما طلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتبوا: محمد رسول الله توقفوا قالوا لا نكتب وإلا فلماذا حاربناك؟ نحن لا نعترف أنك رسول الله

فقال: اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم. قالوا: لا نكتب نحن لا نعرف ما الله ولا ما الرحيم. فقال الرسول: إذن اكتب باسمك اللهم قالوا: نعم اللهم لفظ معروف..

فهل هذا يعني أن الرسول قد تنازل لأنه لم يستعمل بسم الله الرحمن الرحيم واكتفى باسمك اللهم؟ المسألة كانت قضية سياسية و لم تكن قضية معرفية في ذلك الوقت[1].

وبهذا سنصل إلى أن دعاة الجمود لهم خوف على المعرفة، ودعاة التغيير لهم نظر إلى السياسة، وسبب الخلاف هو الغفلة عن تقسيمات المساحة بين الثقافة الأيديولوجية والاستراتيجية!

هذا مع أهمية أن نعرف بأن الفقهاء قد اتبعوا دراسة هذه التقسيمات وعرضوها بمصطلحات دقيقة كـ (الضرورة، الاضطرار، تبدل الموضوع، الحيلة الشرعية، الثانوية، الارتكازية...) إلا أن عدم تبويبها في الدراسات الفقهية العليا ربما أعاق وصولها إلى بعض الكتّاب البارزين كالدكتور شريعتي الذي تناول موضوع الحيلة الشرعية، ومجهول المالك، والعتق والعديد من المواضيع الفقهية على

(١) سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الاجتهاد الكلامي. ٣٧-٣٨.

أنها تبدل إيديولوجي[١] خطير، في حال أنها كانت تطبيقات وأمثلة للوجهة الاستراتيجية فقط وليس كما أدى به الفهم؟!

ويزيد بعضهم نغمة في طنبور الحرب حينما يرى أن ما يقوم به بعض الفقهاء اليوم من تبدلات مطاوعة للثقافة الجديدة هي إشارة واضحة إلى أن الفقه بتمامه يتطور ويتراح؛ وبالتالي يساور الشكُ الجميعَ في جدية الأحكام القديمة، وأنها هي الأخرى قد خرجت بدافع مشابه وهو موافقة ذلك العصر دون أن تحكي مبدأ إسلاميا سابقا عليها فلا قيمة لها تاريخيا ولا حتى للإجماعات؟!

ومن يرون هذا الرأي قد فاتهم التخطيط الدقيق لمساحتي الاستراتيجية والأيديولوجية!

(١) التشيع العلوي والتشيع الصفوي. أنظر من صفحة ١٥١-١٥٧.

أحضان الكتاب

س/ ما هي علاقتكم بالكتب؟ وكيف نشأت؟

ج/ الكتاب يمثل اللغز للسواد الأعظم من الشباب فسؤالك هو سؤالهم المتكرر! وسأحاول فتح ثقب في الغطاء المصمت لنرى حقيقة الكتاب كيف تتجلى في أفق القارئ ولنعرف بعدها أن تجلي الحقيقة هو الذي جعل هذا القارئ وذاك نَهما منهمكا في القراءة..

١- إن الكتاب ملتقى وكل لقاء منه ينتهي بارتقاء وتحليق، هذا عندما يكون القارئ سليما من الإعاقة النفسية!

٢- القارئ ليس الوحيد ممن يحب المعرفة، ولكنه أكثر الناس اهتماما وعجلة في طلب المعرفة، فيقرأ لأنه لا يصبر على عطاء الصفوف والحصص المنظمة وغير المنظمة التي توزع على ليال في الحسينيات أو المساجد أو القنوات الأخرى المتلفزة وغير المتلفزة.

وهذا ما يحلل لنا شخصيتي المعرفة من الملتقطين وهم

القراء، والمتلقين وهم السماعون، فالملتقط هو العاشق والطامح الذي إذا وصل عشقه أقصاه أدركه جنون العاشقين ووقعت ألسنة الناس فيه باللوم والتسفيه لكثرة ما يشتري من الكتب، ولشدة ما يغلق على نفسه مع الكتاب؟!! وهم من يُعرف اليوم باسم "البيلومانيين".

٣- الكتاب شعار للتدين تارة وللفكرة تارة، ولأن كل فئة مؤطرة تحرص على إعلاء شعارها فإن فئة الفكر والمعرفة قد رضيت بالكتاب شعارا لها؛ لذا لا يتخيل الفرد من هذه الجماعة نفسه بلا شعار إلا كما يتخيل الإنسان عاريا بلا لباس يلف جسمه!

٤- الكتاب ألبوم العقول تتحرك مشاعرك مع جمال وروعة الصورة لبعضها... ويزيدك ابتعادا من قبح ودمامة الصورة لبعضها الآخر.

٥- الكتاب إذا فتحته لتنظر نفسك فيه عفا على صورتك الحاضرة، وأظهر لك وجهك بالصورة التي ينبغي أن يكون عليها، ودعاك إلى نموذج أخلاقي أو فكري متقن!

٦- الكتاب هو السبيل الذي يقنعك بأن التجدد لا نهاية له، أنك سترى نفسك جديدا مع بداية ونهاية كل

كتاب تقرؤه!

وأما عني.. فقد ولدت بين أقارب من طرف الأم والأب كانت مسنة ولكني رأيتها تتربع المجالس الشعبية بما يرونه وينقلونه من أحداث تاريخية وسيرة نبوية وقضايا من سيرة أهل البيت وغيرها من الحكايات والأساطير المليحة وفنون الشعر والأدب...

ومن الصور التي لا تزال حية في دماغي: مشهد ثقافي رأيته قبل ثلاثة عقود تقريبا؛ إذ قد كان يفُـــرش لأحد أرحامي عند الجهة الشرقية من بيته ليلا حيث تقل المارة، فيأتي عشاء ويتكئ بين جلاّسه ليبدو فيهم خطيبا، وراويا، وقاصا تسعفه العبارة وتمثيل اليد وتوزيع النظرات لذا لا تدرك الناس معه الملالة ولا السآمة، وهذا ما ينقلني إلى صورة تاريخية مع شخصية عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله عندما كان يفرش وتوضع له الوسادة بين يدي الكعبة لينهل الناس من نميره.

فقد أدركت كل ذلك وطالما كنت أسترق السمع وألمح بالبصر هذه المجالس، وأتأمل هذا العز والشرف الذي بلغه فلان وفلان من كبار الأسرتين بالعلم أو الثقافة، فلم

أرضَ حتى تسللت إلى بيوتهم، ومنها إلى غرفهم ووظفت الفضول خير توظيف للوقوف على خزائن كتبهم (كانوا يضعونها في الدواليب)، وفتحت أبوابها وأطلت التصفح، ثم تجرأت على الاستعارة من هذا وذاك، وربما استوهبت أحدهم الكتاب؛ إذ لم أقاوم الجشع؟!

وأول من يحفظ له حق التأثير والتشجيع هو والدي المبرور "أنسأ الله في عمره" ولي خواطر في ذلك ربما أزعجه ذكرها نتيجة تحسسه البالغ من المدح!! فقد فتحت عيني على أب يتواصل مع الكتاب الجديد، ويقضي بعض الساعات في القراءة والمتابعة وقد أستطاع الكتاب والاطلاع أن يميزاه في منطقه وطريقة تفكيره قياسا بأقرانه، وكان لابد أن يظهر أثر ذلك في ساحتي الخصبة بخصوبة الطفولة والشباب..

والخبر الصادق من تجربتي هو أنني أدركت فضل وميزة الكتاب والغنى الذي يستخرج منه، ولكن ذلك لم يكن ليلقي حبه في نفسي دفعة واحدة، فطالما عجزت عن الإمساك به حتى تظهر علي كل علامات الملل، وإذا أجلسته في حجري أحسست منه ثقلا يفوق الحجارة؟!

وكل ما أعرفه أنني لم أستسلم لهذا الشعور وقاطعته كما يُقاطَعُ الكاذب الفاجر، فحصل أن ترجل هذا الراكب اللئيم عن قلبي، وانطلقتُ بعدها في خفة وسعادة، وأنا مدين بالحمد والشكر لله على ذلك...

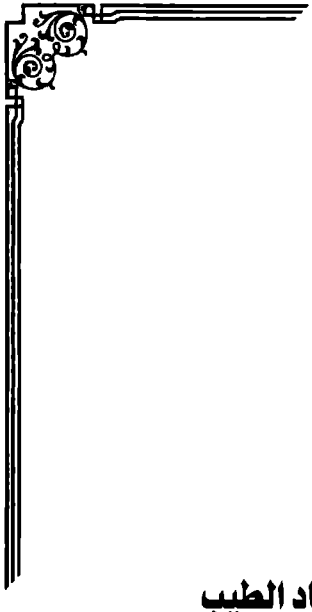

الحصاد الطيب

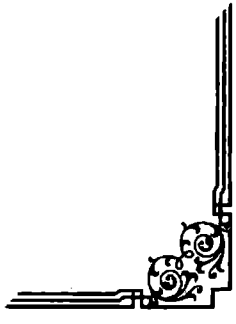

في نهاية قراءة الكتاب نفتح باب الحصاد لجمع المحاصيل التي ينبغي استذكارها من قبل القارئ المهتم وإن لم يغني حفظها وحدها عن فهم المعالجات العلمية والمفصلة الواردة داخل الكتاب.

نقد معايير القبول في الحوزة

إصلاح نظام القبول في الحوزة والمطالبة بالمعايير الأكثر تقنينا في اختيار الطلاب المستجدين هو نداء يحظى بتقييم إيجابي منا، وقد رأينا كيف أن الشيخ المفيد كان من أقدم المطبقين له وأن آخرين شددوا على المطالبة به كالسيد الصدر، ولكن لا يعني إلغاء النظام المفتوح بتمامه، والسبب هو صعوبة الحكم على ذكاء الناس بالخيبة من غير تجربة دليل ذلك ما عرضناه من أمثلة ومقارنات، وأيضا فإن المغالاة في هذا المطلب تأتي من توهم انتمائه العصري، ولكن عرّفناك بأن واقع العصر الحديث يترع للمرونة في شروط القبول الجامعي عبر اتخاذ نظام بديل وهو نظام الجامعات المفتوحة بالشروط المخففة.

الجدل عصمة من التعبد الأعمى

المدرسة الإمامية التي تعتمد التجربة الجدلية مع سائر العلوم والمعارف ذات الصلة بأهداف المعرفة الدينية لا تستثني المنطق الأرسطي، فكان النائيني، والمطهري، والصدر، وعلي كاشف الغطاء، والجوادي فيما نسب إليه، كل هؤلاء ـــ وغيرهم ـــ في عداد من سجل نقودا ومساجلات مع العقل الأرسطي...

نجاح الإبداع وإخفاقه

شددنا وأكدنا على ضرورة استمرار عملية اتخاذ الأوطان العلمية شبه المغلقة وعلى الدعوة إلى التجمع الواسع فيها ودعمها بكل سبل الدعم وأن بناء الأوطان العلمية هو الناظم المشترك بين الجامعات الأكثر إبداعا..

والشيء الوحيد الذي يتسبب في العثرة ويكبل يدي الإبداع ورجليه هو بخل الظروف، والاستمرار التاريخي لتسخط القوى والإرادات العالمية ـــ سياسية أو طائفية أو غيرها ـــ وعدم تصالحها مع الحوزة بالذات!!فإن هذا عامل تشتيت و تبديد للجهود، وأما مثول ذوي الرأي المناقض على منابر التدريس والزعامة داخل الحوزة فهو أمر طبيعي

بل قلنا إنه ضروري، وقد صدَّقت تجارب العقود الأخيرة إمكانية تخطيه.

التثاقف والإمبريالية المعرفية

شهدت الحوزة محاولات لكسر الحاجز بين العصري و الحوزي/الإسلامي.. وذلك من قبل علماء و محققين طلائعيين لم تخنهم شهادة أقرانهم والإشادة بما لهم من مترلة علمية وميزة في تربية العلماء، مع معرفة الكل بأنهم نظروا في العلوم الحديثة ولا سيما الفلسفية منها أو المعنية بحاجة الفقيه نظرة نقد أحيانا و دمج أحيانا أخرى..

ومهدنا لتركيز (القارئ القمين) على التثاقف بين الإنتاج الإسلامي عموما والحوزي خصوصا وبين الإنتاج الشرق غربي في العلوم التي انتظمت في مساري اللسانيات والقانونيات، وقد قدمنا ضمن السرد الفائت مقارنات عديدة تخص المسار اللساني حتى انجر بنا الكلام إلى المقاربات الأصولية في المادة التي تعرف اليوم بالتداولية، كما أننا انتقلنا من الحديث عن الإنجازات اللسانية في عالم اليوم وفرجنا السطور لنصوص باحثين قيموا أصول السيميائية والدلالية لدى علماء وأدباء الأمة العربية والإسلامية، ووضعوا استفهامات الريبة حول ظهور نصوصنا بين يدي

علماء غربيين من غير إيعاز مما يجعلنا في شبهةٍ من وجود حالة إمبريالية معرفية !

التبادل العلمي حاجة مشتركة

لقد عاودنا القول للقارئ مرة بعد مرة أن الإبداع فوق الانتماءات، وأن الحاجة متبادلة بين تحديثات العصر الحالي وتحديثات العلوم الحوزية خصوصا والتراثية عموما، وأن هذه ليست دعوى بل يشترك في الإحساس بها جميع المحصّلين حتى المسكونين بالأصالة وتم إدراج بعض النصوص المتعلقة ببعض أعلام هذا التيار، ونترك للقارئ مراجعة ذلك.

إعادة على مفهوم المؤسسة

ليست الحوزة مؤسسة دينية بالمعنى المسموع للكلمة، بل هي رعايات ومسؤوليات يتم تحملها بشكل منفرد، وأنها تكتسب صفة المأسسة على وجه التشبيه والمقارنة، هذا ما تم الإصرار عليه من قبلنا، ثم دخلنا في الكلام على الطبيعة التنظيمية للمؤسسة الدينية والعلمية حتى يتمكن المتابع اليقظ من معرفة الفروق القاموسية والموضوعية بين نادي الحوزة ونادي المؤسسة.

بلى لعل أول من هندس خارطة المؤسسة الدينية

الحوزية هو المفكر والفيلسوف العملاق السيد محمد باقر الصدر في ورقته: المرجعية الصالحة والموضوعية.

توسع حدود المثقف

مفهوم الثقافة مرّ بمراحل نمو هي مراحل نمو العقل الاجتماعي وأهمها مرحلتان:

١- مرحلة العمومية والموسوعية التي تطوع لها أعلام بارزون كطه حسين وعباس محمود العقاد والشيخ مغنية.

٢- مرحلة الجدلية الاقتحامية وفي كلمة تعريفية هي: "الفهم الذي يمتلك طرق التواصل الجدلي مع الفنون والعلوم المحيطة بالوعي العام".

أخطاء لغة القطيعة

عندما امتلكت الثقافة الجرأة على محاورة المنابر الفقهية استطاعت أن تضع استفهامات تفتق عنها أجواء من البحث العلمي داخل الحصون الفقهية ولسنا بصدد إنكار ذلك، إلا أن بعض حالات هذا الحوار يفتقد المنهجية كما قد أدير بلغة برزت فيها عيوب من قبيل الانتقاء المضر، والمبالغات المرجفة، والتجاوز للدوال الفقهية التي تدل على اتساع التشريع للكثير من المتغيرات وقواعد التحرك في مناطق الفراغ التشريعي، وبرز فيها أيضا التغاضي الواضح عن

كون كثير من مظاهر عدم التوافق بين التشريع القانوني والتشريع الفقهي هي تصادمات لا تتعدى الصياغة الفعلية أي ليست تدور في حمى القاعدة والمرتكزات المعرفية بين المثقف والفقيه.

وإن اللغة التي تمتلئ بهذه الأخطاء المنهجية هي أشبه بلغة التهييج التي تجبر الرأي العام على الفورة والغضب من جهة وتجبر السفينة على الغرق من غير عطب ولا خلل ذاتي!!

كما أن الاعتراف للأسس العلمية الفقهية بالقدرة على مسايرة التطور لا يحجزنا عن التصريح بأن هذا التطور لا يزال يسير ببطء غير متناسب مع متطلبات السرعة في الواقع، وقد حددنا أهم الأسباب وراء ذلك القصور وهو عدم ارتباط الحركة البحثية في المدارس الحوزية العليا(النجف/ قم)بالإدارة المؤسساتية على وفق ما هو المألوف في الجامعات العالمية.

الخلاف الولود

تمحورنا في إجابة أحد الأسئلة في محور اختلاف النظريات في المسألة الواحدة وذكرنا أن هذا من الاختلاف المدرسي وهو لا يكون إلا خلاقا ونعني بالخلاق الذي

يتناقص ويتضاءل مع طي الزمن ويتحول إلى ثوابت، أي أن كثيرا من المسائل بدأت قبل قرون بصورة الخلاف الشديد ولكنها لم تستمر على ذلك فالخلاف الذي يفتتح به المسألة هو من الشك العلمي وميزة هذا النوع من الشك أنه يمثل طريق اليقين ويؤول إلى الفهم المستقيم للقضايا..

ولم يفتنا أن نستعرض كيفية ولادة كثير من النظريات التي هي مشهورة أو موضع اتفاق بينما كانت قد مرت بمرحلة توزع الأعضاء وتنامت بأيدي الباحثين إلى أن جمعت أعضاؤها في صورة حسنة وأصبحت صالحة للحركة بين المسائل.

عوامل الشبه الأسري في العلوم

إن العلوم التي تنشأ وتستوطن جامعةً حد العراقة ستحمل ملامح الشبه الأسري وتصبح شبه شبكة متلاحمة الأطراف رغم اختلاف مسمياتها واتجاهاتها؛ ولذا نحن عندما نقرأ العلوم الأدبية والألسنية لدى المسلمين مثلا نستشعر النفس الأصولي والفقهي فيها بمعنى أن وحدة الجامعة والترعرع في وطن جامعي موحد ساعد على توحيد أدوات اليقين ـــ مجرد مساعدة وتأثير لا ترقى إلى السبب الموضوعي طبعا ـــ وهذا ما نراه في عالمنا الحديث فإن الشك سرى إلى كثير من العلوم بحيث إنك إذا قرأت "الأبستمولوجيا"،

"فلسفة الدين"، "فلسفة العلوم"، "الكلام الجديد"، بل و"الألسنيات" وما عداها أيضا فإنك تستطيع أن ترى حمى التأثر بالشك واضحة في جميعها وقائمة بنفس المصطلحات والمدارس، ومن لطيف ما قرأت في النحو كتاب "الداروينية اللغوية"[١]!!وذلك لأن فلسفة الداروينية بسطت الظلال خارج حدود الجيولوجيا، فتأثرت بها العلوم التي نشأت معها في جامعة موحدة!.

(١) الداروينية اللغوية. د. عبد المنعم جدامي.

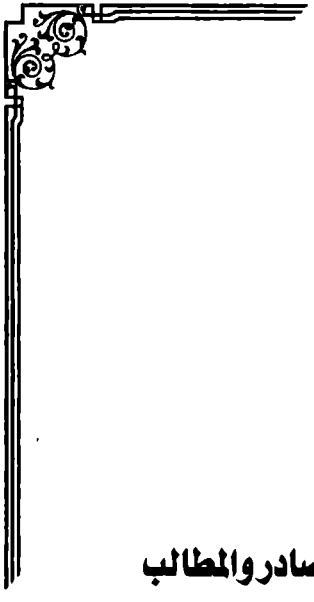

فهرست المصادر والمطالب

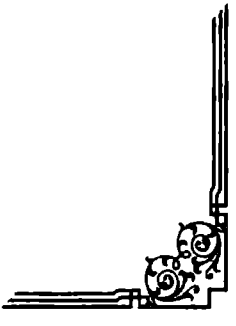

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- المنطق "نظرية البحث". جون ديوى. للمترجم: زكي نجيب محمود.

٣- المنطق للمفكر الكبير مرتضى المطهري.

٤- المنهج الجدلي. إمام عبد الفتاح إمام.

٥- سير أعلام النبلاء للذهبي

٦- المرجعية الصالحة والمرجعية الموضوعية. ضمن مقدمة كتاب مباحث الأصول بقلم السيد كاظم الحائري.

٧- الموسوعة العربية العالمية

٨- دراسات في المنطق وفلسفة العلوم. حسن حسين صديق.

٩- بحوث الدليل اللفظي السيد الهاشمي.

١٠- الأسس المنطقية للاستقراء للشهيد محمد باقر الصدر.

١١- نقد الآراء المنطقية. الشيخ علي كاشف الغطاء.

١٢- مع الفيلسوف. الفندي.

١٣- النحو العربي. د. علي الخزاعي.

١٤- جواهر الكلم. للمؤلف.

١٥- دليل الجامعات ومراكز الدراسات والأبحاث في إيران.

١٦- معادن الجواهر ونزهة الخواطر. السيد محسن الأمين.

١٧- مع علماء النجف الأشرف. الشيخ محمد جواد مغنية.

١٨- الرافد في علم الأصول. السيد منير الخباز، عن أبحاث السيد السيستاني.

١٩- فلسفة اللغة. د. محمود فهمي زيدان.

٢٠- ديوان دعبل جمع عبد الصاحب الدجيلي.

٢١- دراسات تداولية في أصول الفقه. سعود بن عبد الله الزدجالي.

٢٢- كتاب قوانين الأصول لأبي القاسم القمي

٢٣- فرائد الأصول للمرتضى الأنصاري.

٢٤- كفاية الأصول بحاشية الطاهر آل الشيخ راضي.

٢٥- اللسانيات واللغة العربية. الدكتور عبد الرحمن بو درع.

٢٦- مقالات الأصول. للمحقق العراقي

٢٧- نهاية الدراية الكمباني الأصفهاني.

٢٨- حاشية المشكيني.

٢٩- النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة: إبراهيم الحيدري.

٣٠- "القواعد الفقهية" أبحاث الإمام السيستاني بقلم السيد محمد علي الرباني.

٣١- فقه العقود. السيد كاظم الحائري.

٣٢- المبادئ التصورية والتصديقية للفقه والأصول السيد مرتضى الحسيني الشيرازي.

٣٣- المعجم الوسيط.

٣٤- المؤسسات الدينية. كتاب المسبار.

٣٥- مباحث الأصول. السيد الحائري. ج١.

٣٦- تجارب محمد جواد مغنية. ١١٧-١٢٣.

٣٧- آداب المتعلمين. نصير الدين الطوسي.

٣٨- الاجتهاد الكلامي، حوارية عن قضايا اسلامية معاصرة.

٣٩- القطيعة بين المثقف والفقيه ليحي محمد.

٤٠- منطق الشيخ المظفر.

٤١- الهندسة المعرفية للكلام الجديد. أحد قراملكي.

٤٢- التدين والحداثة: محمد جواد اللاريجاني.

٤٣- اختلاف الحديث. تقريرات بحث السيستاني.

٤٤- الاجتهاد والتقليد بحث فقهي مقارن. الشيخ شمس الدين.

٤٥- الاجتهاد والتجديد. الشيخ شمس الدين.

٤٦- كتاب الفقهاء حكام على الملوك. حسن الدجيلي

٤٧- كشف الخفاء.

٤٨- الكافي للكليني.

٤٩- الدرة الباهرة.

٥٠- كتر العمال.

٥١- الجامع الصغير.

٥٢- بحار الأنوار.

٥٣- قصص العلماء للتنكابني.

٥٤- مقدمة تحقيق الرسائل الاعتقادية بقلم السيد مهدي الرجائي.

٥٥- نهاية الدراية. الأصفهاني.

٥٦- التشيع العلوي والتشيع الصفوي. علي شريعتي.

٥٧- رسائل فقهية للشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي.

٥٨- الداروينية اللغوية. د. عبد المنعم جدامي.

٥٩- منهاج الصالحين للسيد الخوئي.

الفهرس

الإهداء ٥

تطور كيان الحوزة وتحررها ٧

فاتحة الحوار ٩

حقيقة وطريقة الكشف عن الذكاء في الحوزة ١٧

أنواع الذكاء الأمس حاجة بحياة العلماء ١٨

الموقعية البناءة والدفاقة لعالم الدين ٢٥

التلقي والتلقين ٢٥

التنشئة الأدبية ٢٥

الميزان العادل ٢٦

الخطاب الحجاجي ٢٦

إسعاف السنة المحمدية ٢٧

رجل الدين وروح الإلهام ٢٩

عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(١) ٣٣

عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(٢) ٣٧

ما نجهله في حقيقة الإبداع ٣٨
التهديدات الجدية في طريق العلم..... ٤٣
١ـ تحديات البناء الذاتي ٤٣
٢- تحديات المشروع..... ٤٤
٣- تحديات القوانين الإجتماعية ٤٦
مظلة العالم وعالم المظلة..... ٤٦
الإستهلاك الشامل ٤٧
عالم الدين بين الفكر الديني والفكر البشري(٣) ٥٣
حاجز الحساسية بين التراثي والعصري..... ٥٤
أ) مسار اللسانيات ٦٠
ب) مسار القانون..... ٦٧
الإبداع فوق الإنتماءات..... ٦٩
الحوزة بين حلم المؤسسة وواقع الرعاية..... ٧٣
طالب العلم بين كفالتي الدين والمجتمع ٧٩
سعة المثقف وعمق المختص ٨٣
تحديد الثقافة في اللا تحديد..... ٨٥
الثقافة التعليمية الرافدة..... ٨٦
التعريف الذي يفرضه الواقع للمثقف..... ٨٩
هل نتصور التفوق في المثقف على طالب العلم؟..... ٩٠

القطيعة بين النخبتين ٩٥
نزاع ومصالحة ٩٨
الإنتقاء المضر ١٠٠
المبالغات والمراجفات ١٠٢
بين الوقوع والواقع ١٠٣
مسائل مشكلة أم مسائل حرجة؟! ١٠٧
إذا عرف السبب فتر العجب ١٠٩
من إدارة الذات إلى إدارة الحياة ١١١
البذخ الفكري متى يكون أو لا يكون؟ ١١٧
الصداقة في حياة طالب العلم كمال ١١٩
الاختلاف الخلاق ١٢٣
ممارسة البحث والمكث ١٢٩
ذوبان العلوم بعضها في بعض ١٣٣
التشابه العائلي بين العلوم ١٣٣
تطور الذات وتحريرها ١٣٩
لواقح الرغبة ١٤١
حجاب الشباب ١٤٣
آهات التجربة ١٤٥
أحضان الكتاب ١٥١

الحصاد الطيب ١٥٧
نقد معايير القبول في الحوزة ١٥٩
الجدل عصمة من التعبد الأعمى ١٦٠
نجاح الإبداع وإخفاقه ١٦٠
التثاقف والإمبريالية المعرفية ١٦١
التبادل العلمي حاجة مشتركة ١٦٢
إعادة على مفهوم المؤسسة ١٦٢
توسع حدود المثقف ١٦٣
أخطاء لغة القطيعة ١٦٣
الخلاف الولود ١٦٤
عوامل الشبه الأسري في العلوم ١٦٥
فهرست المصادر والمطالب ١٦٧
المصادر ١٦٩
الفهرس ١٧٤

روابط للتواصل الإلكتروني

موقع قبس

http://www.qabbas.com

البريد الإلكتروني لموقع قبس

Qabbas123@hotmail.com

القناة على الفيس بوك

https://www.facebook.com/QabbasPage

إن الريادة الناجحة(علمية، أو اجتماعية، أو دينية) هي التي تتصافح مع العقول وتسلك أقرب السبل إلى الفهم العام، لأن سيكلوجية الجماهير المستهدفة لهذه الريادات ترتكز اليوم على المراقبة والمساءلة وتبني متابعتها وطواعيتها على نتائج ذلك! كما يستفزها كثيراً الصمت و الغموض من مراكز الريادة.. ومن هنا تقبلنا هذه الإضمامة من الأسئلة في الشأن الخاص والعام بالحوزة العلمية كمجلى من مجالي الريادة، مع سابق علمنا بأننا لن نستوعب كل ذي أهمية من الأسئلة، لذا سيبقى جزء من مساحة الغموض دون اقتحام وحتى إشعار تالٍ وعمل ثانٍ وربما مع متحدث آخر.

مؤسسة العروة الوثقى
الرويس-المعمورة، شارع خديجة همدر
هاتف : 009613606829 سجل تجاري : 49384

www.qabbas.com
موقع الشيخ عبد الجليل البن سعد